الكوكب العاشر

وقصص أخرى

كوكتيل ٢٠٠٠
ثقافة الغد .. لشباب اليوم

- مع بدء العـــد التنـــازلى ، نحو القـــرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيـل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضـارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليـوم

د. نبيل فاروق

سبحان الله

(قصة قصيرة)

من المؤكّد أن هـذه القصـة ستبدو للعديدين أشبه بالميلودراما الشهيرة ، لأفلام المخرج الراحل (حسـن الإمـام) ، ومـن المؤكّد أيضًا أن العديدين سيعتبرونها مثالاً للرومانسية النمطيـة ، التـى انتهى عهدها ، ولم تعد مقبولـة فى هذا العصر ، الذى سيطرت عليه الماديات ، وانكمشت فيـه مساحة العواطف والروحانيات ، ولكن دافعى الرئيسى لكتابتها هى أنهـا قصـة واقعيـة ، عاصرت بدايتها ونهايتها بنفسى ، وأثارت فى أعماقى الكثير والكثير من المشاعر والانفعالات ..

والعشرات والعشرات من الأفكار والتحليلات ..

ولقد بدأت القصة مع أيامى الأولى فى (القاهرة) ، التى انتقلت إليها من بلدتى الصغيرة ، كخطوة حتمية للاقتراب من مواقع العمل ، واختصار الوقت الضخم ، الذى أفقده فى السفر إليها ومنها يوميًا ..

ففى تلك الأيام ، كنت أجلس مع صديق جديد ، من أصدقاء العمل ، نناقش فكرة جديدة ، عندما دخل الساعى ، وهمس فى أذنه بأن سيّدة تطلب مقابلته ، ولم يكد يذكر له اسمها ، حتى انتفض صديقى فى اهتمام شديد ، وقال للساعى فى حماس :

ـ دعها تدخل على الفور .

ونهض بنفسه لاستقبال السيّدة ، التى بدت لى شابة فى منتصف العشرينات ، هادئة الملامح إلى حد كبير ، وإن ارتسمت على وجهها ، وأطلّت من عينيها لمحة حزن واضحة ، أفسدت الكثير من سمات جمالها البسيط ، وأضفت عليها عمرًا إضافيًا زائفًا ، وبؤسًا واضحًا ، زاد من عمقه ذلك الطفل ، الذى لم يتجاوز عامه الأوّل ، والذى تحمله فى رفق ، وتضمّه إليها فى حنان ، يخيّل إليك أنه يكفى لإسعاد نصف أطفال الأرض دفعة واحدة ..

وعندما حاولت مغادرة الحجرة ، لأفسح لهما المجال للحديث بحرية ، أصرّ صديقى على بقائى ، وانتحى من السيّدة المتشحة بالسواد ركنًا من أركان مكتبه ، وراح يتبادل معها حديثًا خافتًا ، انهمرت خلاله دموعها فى غزارة ، حتى كدت أشاركها إياها ، من شدة انفعالى وتأثّرى ..

وتوقّعت أن يعرض صديقى عليها بعض المال ، أو أن ينهض ليجرى بعض الاتصالات بشأنها ، إلا أن هذا أو ذاك لم يحدث ، وإنما انتهى الحديث بينهما بعد دقائق عشر لم تزد ، نهضت هى بعدها ، ومسحت دموعها وهى تصافحه ، قبل أن تنصرف بنفس الصمت والهدوء ، اللذين دلفت بهما إلى الحجرة ..

وعاد صديقى إلى مكتبه ، وهو يطلق من أعمق أعماق صدره زفرة حارة ، ويهزّ رأسه مشفقًا ، ويغمغم :

ـ يا للبؤس !

وعلى الرغم من فضولى الشديد ، لمعرفة ذلك السر ، الذى يختفى خلف تلك الأرملة الحزينة ـ كما تصوّرت ـ إلا أننى لم أجرؤ على سؤاله عنها ، خشية أن يكون فى ذلك تدخل فيما لا يعنينى ، فأنال ما لا يرضينى ، إلا أنه تطوّع بالحديث ، قائلاً :

ـ إنها إحدى قريباتى من الدرجة الثانية ، توفى زوجها منذ ثلاثة أشهر ، وترك لها ابنة لم تبلغ عامها الأوّل بعد .

شجعنى حديثه على أن أقول :

ـ كنت أتوقّع هذا ، ولكننى تصوّرت فى الواقع أن زوجها توفى منذ فترة أقصر .

تنهّد مرة أخرى ، ولوّح بيده ، قائلاً :

ـ من المؤكد أن جزءًا كبيرًا من حزنها يعود إلى فقد زوجها ، ولكن الجزء الآخر يرجع إلى المشكلات العديدة ، التى أحاطت بها بعد موته .

هممت بسؤاله عن تلك المشكلات ، أو بعرض استعدادى

للمساعدة فى حلها ، إلا أننى أحجمت عن هذا ، خشية أن أسىء إليه أو إليها بهذا ، ولكنه واصل فى بساطة :

ـ عائلة زوجها الراحل تمتلك متجرا لبيع الذهب والمجوهرات ، وكان هو يمتلك ربعه ، بعد وفاة والده ، وتوزيع التركة عليه وعلى أشقائه .

قلت فى اهتمام :

ـ أعتقد أنه فى حال وفاته ، ستحصل ابنتها على ثلث نصيبه ، وتحصل هى على الثمن ، ويوزّع الباقى على أشقائه ..

تنهّد فى أسف ، قائلا :

ـ ولكنهم يرفضون هذا تمامًا .

قلت فى دهشة :

ـ يرفضونه ؟!.. ولكن ليس لهم الحق فى هذا ، قانونًا أو شرعًا .. إنها قوانين المواريث ، المأخوذة من القرآن مباشرة .

هزّ رأسه فى أسى ، قبل أن يقول :

ـ المشكلة أن تقييم تركة كهذه أمر شاق للغاية ، فأشقاء زوجها الراحل يمكنهم إخفاء معظم البضائع فى المتجر ، كما يمكنهم وضع عقبات عديدة فى طريقها ، وهى وحيدة كما ترى ، ولا يمكنها التصدى لهم .

سألته فى حيرة :

ـ ولماذا يفعلون هذا ؟.. المفترض أنهم أثرياء إلى حد كبير ، وهى زوجة شقيقهم الراحل ، ونصيبها ليس ضخمًا ؟

أجاب فى حزن :

ـ المشكلة أنها تريد أن تظل شريكة لهم بنصيبها ونصيب ابنتها من الميراث ، إلى أنهم يرفضون هذا تمامًا ، ويصرون على منحها قدرًا من المال فحسب ، على ألا يكون لها أدنى نصيب من أسهم المتجر .

تضاعفت حيرتى ، وأنا أسأله :

ـ وما حكمتهم فى هذا ؟

تنهّد ، قائلا :

ـ يقولون إنها من الممكن أن تتزوّج مستقبلا ، ويصبح زوجها شريكا لهم بالتبعية ، وهم يرفضون أن يشاركهم أى غريب عملهم .

قلت فى أسى :

ـ ولكنه حقها !

هزّ رأسه مرة أخرى ، قبل أن يقول :

ـ ومن ينظر إلى الحقوق والواجبات فى هذا الزمن ؟

أحنقنى الموقف كثيرًا ، وضايقنى أن يتعامل أشقاء مع زوجة شقيقهم الراحل بهذه القسوة ، وأن يستغلوا قوتهم فى مواجهة ضعفها ، لإجبارها على التنازل عن حق منحها إياه الله (سبحانه وتعالى) ، وأيّدته القوانين الوضعية ، وسألت صديقى فى ألم :

ـ وماذا ستفعل ؟

أجابنى فى خفوت :

ـ بل قل ماذا فعلت .. لقد أخبرتنى الآن أنها قبلت عرضهم مرغمة ، فهى تحتاج وابنتها إلى النقود ، وتعلم أنها لن تستطيع

التصدّى لسطوتهم واتصالاتهم قط .

سألته فى اهتمام :

ـ وهل منحوها من النقود ما يساوى حقها ؟

هزّ رأسه نفيا ، وهو يجيب :

ـ ليتهم فعلوا .. ربما احتفظت عندئذ بشىء من احترامهم فى أعماقى .. لقد أعطوها مائة ألف من الجنيهات ، على الرغم من أن الخبراء المحايدين قدروا نصيبها ونصيب ابنتها بربع مليون جنيه دفعة واحدة ..

ثم مال نحوى ، مستطردًا :

ـ ولكن ثق فى أن صفقتهم ليست رابحة كما يتصوّرون ، فالله (سبحانه وتعالى) يمهل ولا يهمل .

أيّدت قوله بمنتهى الحماس ، ثم طرحنا هذا الأمر جانبًا ، وعدنا نناقش فكرتنا الجديدة ، وكيفية إخراجها إلى النور ، وإن لم تفارق صورة الأرملة الحزينة رأسى بسهولة ، وظللت أفكر فى موقفها ، وموقف أشقاء زوجها الراحل لعدة أيام ، ثم لم يلبث الأمر كله أن انزاح من ذهنى ، مع مشكلات العمل والحياة ، حتى نسيته تمامًا مع مرور الوقت .

ومضى على هذه الواقعة أربعة أعوام كاملة ، انمحى خلالها كل أثر لها من أعماقى ، ثم كان يوم ، ذهبت فيه لزيارة صديقى هذا ، دون موعد سابق ، وعندما دخلت إلى مكتبه ، نهض لاستقبالى فى حرارة ، وقدّم لى سيّدة أنيقة باسمة ، تجلس فى مكتبه ، فصافحتنى بابتسامة عذبة صافية ، وبقيت بضع دقائق ، عرضت

خلالها على صديقى خاتمين من الماس ، انتقى أحدهما لزوجته ، ومنحها شيكا بثمنه ، ثم انصرفت وهى تدعونى لزيارة متجرها مع زوجتى ، لمشاهدة معروضاتها الفريدة ..

ولم تكد تلك السيّدة الأنيقة تغلق الباب خلفها ، حتى مال زميلى نحوى ، وسألنى فى لهفة عجيبة :

ـ ألا تذكرها ؟

انعقد حاجباى فى محاولة للتذكّر ، وأنا أقول :

ـ الواقع أن ملامحها مألوفة إلى حد ما ، ولكننى لست أذكر متى رأيتها بالضبط ، وأين .

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

ـ لقد التقيت بها هنا ، فى مكتبى ، منذ أربع سنوات تقريبًا ، ولكنها كانت ـ حينذاك ـ أرملة متشحة بالسواد ، تحمل طفلة لم تتجاوز عامها الأوّل بعد .

استعاد ذهنى الموقف كله فجأة ، ووجدت نفسى أهتف فى دهشة :

ـ أمن المعقول هذا ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ اختلفت كثيرًا .. أليس كذلك ؟

قلت فى حماس :

ـ بل اختلفت تمامًا .. لم تعد أبدًا تلك الأرملة الحزينة البائسة .. لا ريب فى أن تطورات عديدة قد حدثت ، خلال هذه السنوات الأربع .

تراجع فى مقعده ، قائلا :

ـ لو اخبرتك بما حدث ، لن تصدق نفسك .

سألته فى لهفة :

ـ وماذا حدث بالضبط ؟

أجابنى فى حماس :

ـ أنت تذكر أن أشقاء زوجها أعطوها مائة ألف جنيه ، تعويضا عن نصيبها فى تركته ، وأقنعوا المجلس الحسبى بأن هذا كل ما تستحقه ، ورضخت هى للأمر تماما ، واكتفت بوضع المبلغ فى البنك كوديعة ، والإنفاق من أرباحه على نفسها وابنتها ، فى حين حصلت على عمل بسيط فى شركة كبرى من شركات الاستثمار ، بذلت فيه أقصى جهدها وطاقتها ، فى محاولة لنسيان زوجها الراحل ، وتأمين مستقبلها إلى حد ما .. ولأنها أمينة ومخلصة ، وقليلة الكلام والشكوى ، ترقّت فى عملها خلال عام واحد ، وأصبحت مسئولة عن مصروفات الشركة ، وعمليات الإحلال والتجديد ، مما جعل علاقتها بصاحب الشركة مباشرة ، حيث كانت تحتاج إلى توقيعه قبل إصدار أية شيكات ، أو دفع أية مصروفات .

واتسعت ابتسامته ، وهو يضيف :

ـ ثم تزوجا .

هتفت فى دهشة :

ـ تزوجت صاحب الشركة ؟!

أومأ براسه إيجابا ، وهو يقول :

ـ نعم .. تزوجته .. كان أرملا أيضا منذ ثلاثة أعوام ، ووجد فيها النضج والتهذيب والاحترام ، وشعر أنها تصلح كزوجة لرجل مثله ، فلم يتردد فى طلب يدها ، وعقد قرانه عليها ، ونجح زواجهما بفضل هدوئها وحكمتها ، وأنجبت منه طفلة أخرى ، لم يفرّق أبدا فى المعاملة ، بينها وبين طفلتها من زوجها السابق .

شعرت بالارتياح لحديثه ، وأنا أقول :

ـ حمدا لله .. لقد عوّضها عن مأساتها خيرا .

أشار بسبّابته ، قائلا :

ـ مهلا يا صديقى ، فالأحداث المثيرة لم تبدأ بعد .

سألته فى دهشة :

ـ هل تطوّرت الأحداث أكثر ؟

أجاب مبتسما :

ـ بالتأكيد ، ومن جانب أشقاء زوجها هذه المرة .

ملت نحوه ، أسأله فى لهفة :

ـ وكيف ؟

أجابنى فى حماس واضح :

ـ طمعهم دفعهم إلى القيام بمحاولة لتهريب الماس ، ألقوا خلالها بكل ما لديهم من أموال سائلة ، وبكل ما اقترضوه من البنوك ، على أمل نجاح المحاولة ، وتحقيق أرباح خرافية ، ولكن محاولتهم فشلت ، وألقت الشرطة القبض عليهم ، واضطروا للتنازل عن صفقة الماس كلها ، فى مقابل عدم مواصلة الإجراءات ، وإقامة الدعوى الجنائية ضدهم ، فتمت مصادرة

الماس ، وخسروا كل ثروتهم ، وأصبحوا مدينين بما يقرب من أربعة ملايين جنيه .

قلت مبهورا :

ـ سبحان الله .. يُمهل ولا يهمل .

أجابنى فى حماس أكبر :

ـ انتظر يا رجل ، ما زال للقصة بقية .

هتفت :

ـ أكثر من هذا ؟!

أجاب ضاحكا :

ـ أكثر بكثير ، فعندما أفلسوا ، اضطروا لبيع فيلتهم الفاخرة ، ومتجر المجوهرات والذهب ، فتقدّم زوج قريبتى لشرائهما ، وجعل عقود البيع والشراء كلها باسمها ، فأصبحت هى المالكة الفعلية للفيلا ، ومتجر الذهب والمجوهرات ، الذى كان لزوجها الراحل ربعه فحسب .

انفغر فاهى وأنا أحدّق فى وجهه غير مصدّق ، وهو يتابع فى ارتياح :

ـ هل رأيت كيف أنه من الخطأ أن تمكر بحدود الله (سبحانه وتعالى) ؟!.. لقد أرادوا حرمانها من بضعة ألوف من الجنيهات ،

ومن نصيب ضئيل فى شركتهم فمنحها الله (عزّ وجلّ) شركتهم كلها ، وأصبحوا هم مجرّد موظفين لديها .. صدقنى يا رجل .. الله (سبحانه وتعالى) يمهل ولا يهمل أبدًا ، وهو خير الماكرين ..

لم أستطع التعليق على حديثه هذه المرة ، فقد انعقد لسانى من شدة انبهارى ودهشتى ، وغادرت مكتبه وأنا أضرب كفًا بكف ، وأتساءل : هل سيصدّق قرائى القصة لو كتبتها ؟!..هل سيصدقون أن ما يحدث فى الحياة ، يفوق كل ما نراه على شاشات السينما ، فى أفلام الميلودراما العنيفة ؟!..

ولكننى اتخذت قرارى بكتابة القصة ، حتى ولو لم يصدّق قارئ واحد أنها قصة حقيقية واقعية ، من الألف إلى الياء ..

قصة لا أملك معها سوى أن أردّد عبارة واحدة ..

سبحان الله ..

* * *

اختبر معلوماتك

صديقى القارئ ..

مرة أخرى نلتقى ، فى ذلك التحدى المستمر ، الذى نواجهك به فى كل مرة ..

ذلك التحدى ، الذى يكمن فى سؤال واحد ..

هل أنت مثقف ؟! ..

ولا تجعل سؤالنا هذا يستفزك ، فهو مجرد سؤال بسيط ، يمكنك أن تطرحه على أصدقائك ومعارفك ، مع تلك الأسئلة ، التى نقدمها لك بأسلوب أنيق متحضر جديد ..

اقرإ المعلومة أولاً ، ثم حاول أن تجيب السؤال :

هل أنت ..

مثقف ؟! ..

* * *

١ ـ اشترك مع الرسول (ﷺ) ، فى غزوة أحد ، وصحبه فى جميع غزواته ، وذهب إلى (نجران) ، ليعلم القبائل التى خضعت للإسلام قواعد الدين الجديد ، وولاه أبوبكر الصديق قيادة أحد الجيوش ، التى أرسلها لفتح بلاد الشام ، وفى عهد عمر بن الخطاب تولى قيادة الجيوش فاتسعت فتوحاته ، وأصبح واليا على جميع البلاد السورية ، وهو :

□ خالد بن الوليد □ أبوعمرو بن العلاء □ أبو عبيدة بن الجراح .

٢ ـ وسيلة لتسجيل وإعادة الصور ، على شكل ثلاثى الأبعاد ، بوساطة شعاع من الليزر ، يتم إسقاط نصفه على الجسم المراد تصويره ، والنصف الآخر على الفيلم الحساس ، وتستخدم الوسيلة نفسها عند الاستعادة ، وهذا الأسلوب يعرف باسم :

□ الليزر . □ الهولوجراف . □ الفيديو .

٣ ـ حمل لقب أبى الموسيقى الألمانية ، وظهر فى أسرته أكثر من خمسين موسيقيًا يحتل هو مركز الصدارة منهم .. أرهق بصره فى صغره حتى فقده فى أواخر أيامه ، وتعتبر موسيقاه دعامة الموسيقى الحديثة ، وله مؤلفات موسيقية دينية ، وكونشرتو ، وسوناتا ، وكورال ، وهو :

□ بتهوفن . □ يوهان باخ . □ موزارت .

٤ ـ عشب حولى ، أو ثنائى الحول ، اسمه العلمى (هيبسكس اسكيولنتس) ، من العائلة الخبازية ، موطنه المناطق الاستوائية ، من العالم القديم ، وهو قريب الشبه من نبات القطن ، وثمرته علبة تجمع القرون تباعا ، وهى صغيرة ، بداخلها لب غروى ، به بذور عديدة ، واسم العشب هو :

☐ بامية . ☐ ملوخية . ☐ قرع .

٥ ــ مدينة بصعيد مصر على النيل ، فى محافظة قنا ، تشغل جزءا من موقع مدينة طيبة القديمة ، وهى من أشهر المدن السياحية فى العالم ، ومن أشهر الآثار فيها وادى الملوك ، وطريق الكباش ، والمعبد الشهير ، الذى يحمل اسمها ، وهذه المدينة هى :

☐ أسوان . ☐ سوهاج . ☐ الأقصر .

٦ ــ أسرة فارسية ، لعبت دورا أساسيًا فى شئون الدولة العباسية ، فى زمن الخلفاء الأربعة الأول ، قرّبهم إليه الخليفة (هارون الرشيد) ، ومنحهم نفوذا كبيرًا فى الدولة ، ثم لم يلبث هذا النفوذ أن أثار قلقه وغضبه ، فانقلب عليهم ، وتخلص منهم فى مذبحة كبيرة ، واسم هذه الأسرة :

☐ العباسيون . ☐ البرامكة . ☐ الشراكسة .

٧ ــ مساحة من الأرض المنخفضة ، تتشبّع فيها التربة بالماء ، وتغطيها النباتات عادة ، وهذا يحدث بسبب عدة عوامل تعوق الصرف الطبيعى للمياه ، كاستواء سطح الأرض ، أو نمو نباتات كثيفة ، فتعرف هذه المساحة باسم :

☐ بركة . ☐ بحيرة . ☐ مستنقع .

٨ ــ عنصر لا فلزى ، يوجد فى الطبيعة بصور مختلفة بدءًا من الماس ، وهى أكثر صوره صلابة ، وحتى الجرافيت ، وهو أكثرها ليونة ، وهو عنصر خامل كيميائيًا ، يقاوم فعل معظم الأحماض ، ولكنه يحترق عند درجة حرارة ٣٥٠ م ، وهو :

☐ الكبريت . ☐ الكربون . ☐ الكوبالت .

٩ ــ يلقّب بالشريف ، ولد فى سبتة ، وتعلّم فى قرطبة ، ثم ساح فى أوروبا وآسيا الصغرى ، حتى استقر فى بلاط روجر الثانى فى صقلية ، وهناك صنع خريطة العالم على أسطوانة من فضة ، ووضع كتابه (نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق) ، وهذا الشخص هو :

☐ الإدريسى . ☐ الفلكى . ☐ ابن خلدون .

١٠ ــ المادة الأساسية ، التى تتركب منها الكائنات الحية ، وتوجد فى خلايا النبات والحيوان داخل غلاف رقيق ، هو الغشاء البلازمى ، الذى يضبط مرور المواد ، من الخلية وإليها ، وتتركب من ٨٥ ــ ٩٠٪ ماء ، و ٧ ــ ١٥٪ بروتينات ، وهى ذات مصدر حبيبى ، وتتكوّن من نواة وسيتوبلازم ، وهى :

☐ الخلايا . ☐ البروتوبلازم . ☐ الاندربلازم .

١١ ــ روائى فرنسى ، له مجموعة روايات قصيرة بعنوان (الكوميديا الإنسانية) يصف فيها المجتمع الفرنسى بكل فئاته ، ومختلف حرفهم ومهنهم وصناعاتهم ، ومن أشهر رواياته (أوجينى جراندية) ، و (الأب جوريو) ، وعلى الرغم من نجاحه فى أدب القصة القصيرة ، إلا أنه فشل تمامًا فى الكتابة المسرحية ، وهو :

☐ ألكسندر دوماس . ☐ جورج سيمون . ☐ بلزاك .

١٢ ــ حشرة من رتبة ذات الجناحين ، من فصيلة (كيوليسيدس) ، توجد فى معظم بلاد العالم ، وأجزاء الفم فى الإناث ماصة ، تتغذى على دم الإنسان ، ودماء الكثير من الثدييات ، تنقل للإنسان عدة أمراض ، أشهرها (الملاريا) و(الفيلاريا) ، وهذه الحشرة هى :

☐ البعوضة . ☐ الذبابة . ☐ البق .

١٣ ــ أرخبيل يتكون من مجموعة من الجزر ، فى الخليج العربى ، بين قطر والأحساء ، به عيون ماء عذبة ، العاصمة والميناء الرئيسى (المنامة) ، أكثر سكانه من العرب ، ومنهم جاليات إيرانية وهندية وأوروبية ، وينتج كميات ضخمة من البترول ، وهذا الأرخبيل هو :

☐ العراق . ☐ الكويت . ☐ البحرين .

١٤ ــ لعبة قديمة يلعبها شخصان ، على رقعة مربعة ، بها ٦٤ مربعا من لونين مختلفين ، ولكل لاعب ست عشرة قطعة ، ويعتقد أن أصل هذه اللعبة هندى ، وأنها انتقلت منها إلى (فارس) ، ثم إلى الشرق كله ، واسمها :

☐ الطاولة . ☐ الشطرنج . ☐ الدومينو .

١٥ ــ مرض جلدى ، يحدث بسبب الحساسية المفرطة لخلايا بشرة الجلد ، وفيه يظهر طفح أحمر ، وحبيبات بها سائل ، تتفقئ بالهرش ، وتتحول بعدها إلى قشور وهو يحدث بسبب الاضطرابات العصبية ، أو سوء التغذية ، أو وجود بؤر صديدية فى الجسم ، أو بسبب الإصابة بالبول السكرى ، وهو :

☐ الأكزيما . ☐ المرارة . ☐ التهاب الكلى .

١٦ ــ سبيكة من النحاس والقصدير ، أو من النحاس وفلزات أخرى ، وتضاف إليها الفضة ، أو الألومنيوم ، أو الخارصين ، أو الرصاص ، لزيادة بريقها أو صلادتها ، وتستعمل فى صناعة سطوح التحميل ، والصمامات ، والسقوف ، والحلى ، وغيرها .. وهذه السبيكة هى :

☐ الفولاذ . ☐ الجولامين . ☐ البرونز .

١٧ ــ جمهورية فى وسط إفريقيا ، عاصمتها (كمبالا) ، وعلى حدودها بحيرات (فكتوريا) ، و (ألبرت) ، و (إدوارد) ،

وجبال (رونزورى) ، وأهم صادراتها القطن والبن .. معظم سكانها من الباانتو ، وهى جمهورية :

☐ ليتسواى . ☐ أوغندا . ☐ جنوب إفريقيا .

١٨ ــ أبعد كواكب المجموعة الشمسية عن الشمس ، اكتشف نتيجة لحساب الخلل فى مسارى (نبتون) و (أورانوس) ، وهو يبعد عن الشمس حوالى ٣٦٧٠ مليون ميل ، ويقطع مساره فى ٢٤٨ سنة ، ولم تكتشف له أية أقمار ، وهو :

☐ المشترى . ☐ زحل . ☐ بلوتو .

١٩ ــ الاسم الذى يطلق على ما يحدث للمادة ، عندما تكتسب إليكترونا أو أكثر ، ويزداد تكافؤها السالب ، هو نفسه الاسم الذى كان يستخدم قديما ، قبل النظرية الإليكترونية ، لوصف ما يحدث عند إزالة الأكسجين من مادة ما ، وهذا الاسم هو :

☐ التأكسد . ☐ الاختزال . ☐ الاحتراق .

٢٠ ــ عدد من الأنواع النباتية ، من جنس (تريفوليوم) ، تتبع الفصيلة القرنية ، وأوراقها مركبة من ثلاث وريقات ، وهى غذاء كامل للماشية والدواب ، ومن أفضل النباتات لنحل العسل ، كما أن زراعتها تفيد التربة ، وتزيد من خصوبتها ، واسم هذه الأنواع هو :

☐ البرسيم . ☐ السرخسيات . ☐ الجعضيض .

* * *

وكما يحدث فى كل مرة ، ينتهى لقاؤنا ، ويصل اختبار المعلومات إلى نهايته ..

وتكون أنت قد وضعت أجوبة الأسئلة ..

وكل ما عليك الآن هو أن تراجعها على الحلول المنشورة فى نهاية الكتاب ..

وبعدها ستجيب بسهولة على السؤال ..

هل أنت مثقف ؟!..

* * *

خرزة زرقاء (قصة قصيرة)

« مبروك السيارة الجديدة .. » .

نطقت (فدوى) ، الجملة بلهجة عذبة وحروف أنيقة ، وهى تنحنى لتطبع قبلة على خد زوجها (حسن) ، الذى اتسعت ابتسامته ، وهو يرد لها قبلتها ، قائلا :

ـ أشكرك يا زوجتى العزيزة .. لولاك ما استطعنا شراء سيارة جديدة قط .

ضحكت فى دلال ، قائلة :

ـ أنت الذى عمل بجهد أكثر طوال العام .

قال فى حماس :

ـ ولولا صبرك وتشجيعك وحماسك ، لما أمكننى هذا .

ضحكت مرة أخرى ، وقد أسعدتها كلماته ، ثم قالت بلهجة ذات مغزى خاص :

ـ أحضرت لك هدية بهذه المناسبة .

اعتدل قائلا فى لهفة :

ـ هدية ؟! .. حقا ؟!

أومأت برأسها إيجابا ، وهى تخرج من حقيبتها خرزة كبيرة زرقاء ، تتدلى من سلسلة ذهبية أنيقة ، فسألها فى دهشة :

ـ ما هذه بالضبط ؟

انحنت تطبع قبلة أخرى على خده ، قائلة :

ـ خرزة زرقاء ، لتعلقها فى المرآة الداخلية للسيارة الجديدة .

سألها فى اهتمام :

ـ هل تعتقدين أن لونها يناسب طلاء السيارة الأخضر ؟!

ضحكت ، قائلة :

ـ لايهم ما إذا كان لونها يناسبه أم لا ، فمن المحتم أن تكون زرقاء هكذا .

بدت عليه الحيرة بضع لحظات ، قبل أن يسأل بابتسامة مرتبكة :

ـ ولماذا زرقاء بالتحديد ؟

أجابت فى حماس :

ـ حتى تبعد عنك العين ، وتمنع الحسد .

هتف :

ـ الحسد ؟!

وانفجر ضاحكا فى مرح ، فانعقد حاجباها ، وهى تقول :

ـ لا تسخر من الحسد .. لقد أتى ذكره فى القرآن .

تصنع الجدية ، وهو يسألها :

ـ وهل ارتبط هذا بضرورة تعليق خرزة زرقاء ، فى المرآة الداخلية لأية سيارة جديدة ؟

ازداد انعقاد حاجبيها ، وهى تقول فى غضب :

ـ الجميع يفعلون هذا .

ضحك فى مرح ، وربّت على كتفها فى حرارة ، قائلا :

ـ لا بأس .. لا داعى لكل هذا الغضب .. سأعلقها فى المرآة الداخلية ، ما دام هذا يسعدك .

قالت فى حنق :

ـ ليس لمجرّد أن هذا يسعدنى .. المفترض أن تقتنع .

هزّ كتفيه ، قائلا :

ـ ليس من الضرورى أن أفعل ، فأنا رجل عقلانى تمامًا ، بحكم دراستى وتكوينى ، ولن يمكنك إقناعى بهذه الأمور قط .

قالت فى حدة :

ـ أنت تعتبرها مجرّد خزعبلات .. أليس كذلك ؟

هتف مبتسمًا :

ـ بل هى أمور عظيمة .. عظيمة تمامًا .

صاحت غاضبة :

ـ هل تسخر منى ؟

نهض من مقعده ، واحتواها بين ذراعيه ، وهو يقول :

ـ مطلقًا .. أقسم لك إننى مقتنع تمامًا .. لا داعى للغضب ، حتى لا نفسد مناسبة سعيدة كهذه .

ناولته الخرزة الزرقاء الكبيرة ، قائلة :

ـ علقها الآن إذن .

التقطها ، قائلا فى مرح :

ـ فليكن .

انهمك بضع لحظات فى تعليق الخرزة الزرقاء الكبيرة ، التى تدلّت من المرآة بسلسلتها الذهبية الأنيقة ، وهو يهتف مجاملا :

ـ رائعة .. لست أدرى ماذا كان يمكن أن أفعل بدونك .

ابتسمت فى سعادة ، هاتفة :

ـ أرأيت ؟!

شعرت بالكثير من الارتياح والثقة ، وهى تلوّح له بيدها ، عندما انصرف إلى عمله بالسيارة الجديدة ، وانهمكت بعدها فى أعمالها المنزلية ، وفى العناية بطفلهما الصغير ، حتى فوجئت به يعود إلى المنزل بعد ساعة واحدة ، وهيئته توحى بأنه خرج على التو من معركة طاحنة ، فهتفت به مذعورة .

ـ ماذا حدث ؟

أجابها بعينين زائغتين :

ـ السيارة الجديدة تحطّمت تمامًا .. أصبحت مجرّد خردة .

صرخت فى ارتياع :

ـ كيف ؟

لوّح بيديه فى حنق ، مجيبًا :

ـ الطريق الرئيسى كان مزدحمًا بشدة ، وأردت اختصار المسافة ، فاتخذت الطريق الفرعى القديم ، الذى يقطع شريط السكة الحديد ، وبينما كنت أعبره ، ظهر القطار فجأة ، فضغطت

دواسة الوقود بكل قوتى ، وانحرفت بالسيارة يسارا ، وكدت أتجاوز الشريط بسرعة ، لولا أن ارتطم شىء ما بوجهى ، فارتبكت ، وبقيت مؤخرة السيارة فوق الشريط ، فما أدى إلى ارتطام القطار بها ، ولولا رحمة الله (سبحانه وتعالى) ، لما خرجت من هذه الحادثة البشعة حيًا أبدًا .

انهارت على أقرب مقعد إليها ، وهى تهتف :

ـ مستحيل !.. مستحيل !.. إننا لم نسدد باقى ثمنها بعد .

صاح فى غيظ شديد :

ـ ولكننى احتفظت بذلك الشىء ، الذى ارتطم بوجهى فى اللحظة الحرجة ، وأربكنى ، ففقدت السيطرة على السيارة ، ووقع الحادث .

قالها وهو يفرد يده أمامها ، فتجمدت دموعها فى مقلتيها بغتة ، وخفق قلبها فى عنف .

ففى راحته ، كانت تستقر هديتها ..

الخرزة الزرقاء .

* * *

هذه القصة لم تحدث من قبل ..
أو ربما حدثت ..
أو أن بعضها حدث ، وبعضها لم يحدث ..
ضعها فى عقلك حسبما يتراءى لك ..
ولكن المهم أنها تحمل توقيع الوطن ..
توقيع (مصر) ..

د . نبيل فاروق

١ ـ المظلة ..

على الرغم من أن عقارب الساعة كانت تشير إلى تمام منتصف الليل ، إلا أن مبنى مجلس الوزراء المصرى بدا أشبه بشعلة من النشاط والحركة ، على نحو يوحى بحدوث أمر جلل ، خاصة وأن رجال الأمن انتشروا فى المكان ، وحول المنطقة كلها ، على نحو لم يحدث من قبل ، كما أن أرقام السيارات داخل ساحة الانتظار فى المبنى ، كانت تشير فى وضوح إلى اجتماع بالغ الأهمية والخطورة ، ينعقد حتى هذه الساعة المتأخرة ، فى قاعة الاجتماعات الرئيسية ، ويضم رئيس الجمهورية شخصيًا ، ورئيس الوزراء ، ومدير المخابرات العامة ، ووزير الحربية ، وقائد القوات الجوية .

وكان من الطبيعى أن يثير مثل هذا الاجتماع السرى عشرات المخاوف والتساؤلات ، وبالذات لأن الصحف أو نشرات الأخبار لم تكف لحظة واحدة عن متابعة أخبار الطائرة المختطفة ، التى قادها المختطفون عنوة إلى المجال الجوى الإسرائيلى ..

ومع عشرات التعليقات والتحليلات ، التى خرج بها الصحفيون ورجال الإعلام والسياسة ، إلا أن أحدًا منهم لم يخطر بباله قط السر الفعلى والسبب الحقيقى ، وراء حادث اختطاف الطائرة ، والاجتماع السرى فى مبنى مجلس الوزراء ..

ولم يكن من الممكن أن يُعلن هذا السبب الحقيقى قط ..

فالواقع أن مختطفى الطائرة لم يكونوا من الإرهابيين العاديين ،

وإنما كانوا من رجال (الموساد) ، الذين يسعون لاستعادة وثيقة بالغة السرية والخطورة ، حصل عليها رجل مخابرات مصرى ، وأخفاها داخل صناديق الآثار ، التى تنقل محتويات معرض (توت ـ عنخ ـ آمون) ، بعد انتهاء فترته فى (لندن) ..

ولأن العملية شديدة التعقيد ، والهدف بالغ السرية ، كان من الطبيعى أن تستعين المخابرات المصرية بشخص غير تقليدى ، للقيام بمهمة تحرير الرهائن ، وإنقاذ الطائرة المختطفة ، ومنع الإسرائيليين من استعادة الوثيقة ..

وعندما تم إسناد المهمة إلى رجل المخابرات المحترف (نسيم) ، وقع اختياره على الشخص المناسب ، للقيام بمهمة انتحارية مدهشة ، لتحقيق الأهداف الثلاثة .

وقع اختياره على (فاى) ..

(فاى) وحده (*)

ولأن العملية تحتاج إلى شخص واحد بالتحديد ، فقد حملت اسم (عملية النسر المنفرد) ..

وانطلق (نسيم) مع (فاى) لتنفيذ المهمة ..

وكانت العملية انتحارية عنيفة بالفعل ، تعتمد على مبادرة مدهشة ، لا يمكن أن يتصورها أو يتوقعها المختطفون ..

لذا فقد كان أثر المفاجأة صاعقًا للمختطفين ..

(*) راجع قصة (البعث) فى عدد كوكتيل ٢٠٠٠ رقم (٢٠) .

لقد فوجئوا بالشاب يقتحم الطائرة فى الجو ، وينقض عليهم كأسد هصور ، حتى أنه قتل اثنين منهم فى الهجوم الأول ، ثم انطلق محاولا اللحاق بالثالث ، قبل أن يستعيد الوثيقة المنشودة ، من مخزن البضائع فى بطن الطائرة ..

ولكن الإرهابى الثالث (يائيل) كان قد استعاد الوثيقة بالفعل ، عندما حدثت المواجهة فى المخزن ، لذا فقد وجد أن أفضل ما يفعله ، والطائرة داخل المجال الجوى الإسرائيلى ، هو أن يقفز منها حاملا الوثيقة ، فيفوز بالغنيمة الرئيسية كلها ..

وعبر مخرج الطوارئ ، قفز (يائيل) ..

وبلا تردُّد ، قفز خلفه (فاى) ، وهو يعلم تمام العلم أن الطائرة ما زالت تحلق فوق المجال الجوى للعدو ..

المجال الجوى الإسرائيلى (*)

* * *

دفع قائد الطائرة عجلة القيادة ، فى محاولة لزيادة السرعة ، والخروج من المجال الجوى الإسرائيلى ، وهو يقول لمساعده فى توتر بالغ :

ـ هل تعتقد أننا نستطيع الإفلات منهم ؟.. سيطلقون مقاتلاتهم خلفنا حتمًا ..

أجابه مساعده ، وهو يؤدى عمله فى توتر أشد :

(*) للاطلاع على التفاصيل الكاملة ، راجع الجزء الأول من (عملية النسر المنفرد) ، فى كوكتيل ٢٠٠٠ العدد الحادى والعشرين .. (صانع اللعب) وقصص أخرى .

ـ فرصتنا الوحيدة فى أن الأحداث تداعت فى سرعة ، حتى أن الإسرائيليين قد يرتبكون ، فلا يطلقون مقاتلاتهم خلفنا ، إلا بعد فوات الأوان .

انتفض جسد قائد الطائرة ، وهو يقول :

ـ كلا .. لست أظن هذا ..

التفت إليه مساعده ، قائلا :

ـ لماذا ؟.. المفترض أن ..

قاطعه قائد الطائرة ، وهو يشير إلى الخارج ، قائلاً :

ـ لقد أطلقوها بالفعل .

التفت مساعده إلى النافذة الجانبية فى حركة حادة ، واتسعت عيناه فى ذعر ، وهو يحدّق فى مقاتلتين إسرائيليتين ، تنطلقان نحو الطائرة ، بزاوية توحى بنية الانقضاض المباشر ، وهتف :

ـ إنهما تنقضّان علينا .. ماذا يمكننا أن نفعل ؟

أجابه القائد فى توتر بالغ :

ـ لست أدرى .. الطائرة لن تصمد أمامهما قط .

هتف مساعده :

ـ ولكنك طيار مقاتل سابق .. ألا يمكنك مناورتهما ، حتى ندخل مجالنا الجوى على الأقل ؟!

قال القائد فى حدة :

ـ لا تنس أن هذه الطائرة مدنية يا رجل ، وليست مصمّمة للمناورة والقتال ، وجسمها لن يحتمل أية تحركات مباغتة ..

شحب وجه مساعده ، وهو يقول :

ـ أيعنى هذا أننا انتهينا ؟!

قال القائد فى توتر :

ـ ربما لن يطلقوا النار .. إننا طائرة مدنية ، والعرف الدولى يقول ...

قاطعه مساعده فى عصبية :

ـ العرف الدولى ؟... ومنذ متى كان الإسرائيليون يهتمون بالقوانين والأعراف الدولية ؟.. ألم يسبق لهم إسقاط طائرة مدنية بحجة أنها اخترقت مجالهم الجوى (*) ؟

راجع القائد بيانات الأجهزة والمؤشرات أمامه ، قبل أن يقول :

ـ ولكننا نقترب من مجالنا الجوى بالفعل .. دقيقتان فحسب ، و ..

قاطعته صيحة مساعده :

ـ احترس .. مقاتلة تنقضّ علينا .

ولم يدر المساعد أى تأثير تركته صيحته فى قائده ..

لقد اخترقت أذنه ..

بل كيانه كله ، وانتزعته بغتة من طبيعته الرصينة كقائد طائرة مدنية ، لتلقى به فى عنف ، فى أعماق مهنته القديمة كمقاتل جوى لا يشقّ له غبار .

لقد لمح المقاتلة تنقضّ عليه من اليسار ، فمال بالطائرة بغتة ، لتفادى الانقضاضة ، ثم انخفض بها إلى أسفل ، واندفع إلى الأمام فى حركة واحدة ..

(*) واقعة حقيقية .

وفى نفس اللحظة تقريبا ، أطلقت المقاتلة الإسرائيلية صاروخها ..

ومع المناورة المباغتة غير المتوقعة ، تجاوز الصاروخ الإسرائيلى جسم الطائرة المدنية المصرية ، فى حين صرخ ركابها فى ذعر ، وقفز الصغير (أحمد) يتعلق بعنق (وفاء) ، وهو يصرخ :

ـ لا أريد أن أموت .. لا أريد أن أموت .

ضمته (وفاء) إلى صدرها ، وجسدها كله يرتجف انفعالا ، وهى تقول :

ـ اهدأ يا صغيرى .. اهدأ .. كل شىء على ما يرام .

ولكن اللهجة التى نطقتها بها لم تنجح حتى فى إقناعها هى ، وعيناها المتسعتان تحدقان فى رعب ، فى المقاتلة الإسرائيلية الثانية ، التى انقضت على الطائرة من الزاوية الأخرى ، وصوب قائدها صاروخه نحو الهدف بالضبط ، وهو يقول فى غضب صارم :

ـ مناورة لا بأس بها أيها المصرى ، ولكن المؤسف أنها ستكون مناورتك الأخيرة .

قالها ، وسبابته تتجه نحو زر إطلاق الصاروخ ..

وشق السماء صاروخ قوى ، يعرف هدفه بالضبط ، و ..

وكان انفجار الطائرة هائلا ..

* * *

أطلق (يائيل) ضحكة ظافرة عالية ، وهو يقفز خارج الطائرة

المدنية . وهتف وجسده يسبح فى الهواء ، وسط الظلام الدامس:

ـ خسرت أيها المصرى .. كان ينبغى أن تدرك أنه ما من رجل مخابرات فى العالم يفوق أحد رجال (الموساد) ..

لم يكد يتم عبارته ، وهو يمد يده لجذب خيط المظلة ، حتى انقض عليه (فاى) ..

وكانت انقضاضة مباغتة ، تفجرت دهشتها فى أعماق (يائيل) كألف قنبلة ، وجعلته يصرخ ذاهلا :

ـ مستحيل !

وكان على حق فى صرخته هذه ، فما فعله (فاى) يعد ضربا من المستحيل بالفعل ..

لقد وثب خلف (يائيل) ، وتحكم فى زوايا جسده ببراعة مذهلة ، ليندفع فى الهواء ، خلف خصمه مباشرة ، حتى انقض عليه كالصاعقة ..

وكل رجل مظلات فى العالم يدرس هذا الأسلوب ..

ويعرف كيف يتحكم فى جسده وحركته ، فى أثناء هبوطه الحر، قبل فتح المظلة ..

ولكن قليلين هم من يجيدون هذا ..

وندرة من يتقنونه ..

و(فاى) واحد من هؤلاء ، الذين أتقنوا التحكم فى الجسد ، فى أثناء الهبوط الحر ، إلى درجة تقارب الكمال ..

ثم إنه يمتلك صفة مدهشة أكثر ..

الإصرار ..

وربما كانت هذه أقوى سماته ..

إنه يمتلك قدرا من الإصرار والعزم والعناد ، يكفى فصيلة كاملة ، للقتال كالوحوش ، فى مواجهة الخطر ..

كما أنه لا يدخر وسعا ، أو يتردد لحظة واحدة ، فى التضحية بكل غال وعزيز ، وحتى بحياته نفسها ، ما دام الأمر يحمل الكلمة السحرية ، التى يكفى النطق بها ، ليشتعل حماسه ، وتلتهب أعماقه ، وتبلغ إرادته ذروتها ..

كلمة (مصر) ..

فمن أجلها قبل القيام بالمهمة ..

ومن أجلها قفز خلف (يائيل) ..

وانقض عليه فى الهواء ..

ودون أن ينطق حرفًا واحدًا ، هوى بقبضته على فك (يائيل) كالقنبلة ، فتأوّه هذا الأخير ألمًا ، وصرخ :

ـ كيف تجرؤ أيها المصرى الـ ..

قاطعته لكمة أخرى ساحقة ، من قبضة (يائيل) نفسها ، فتحطّمت واحدة من أسنانه الأمامية ، وأغرق الدم وجهه ، وهو يصيح :

ـ سأقتلك أيها المصرى .. سأقتلك .

لكمه (فاى) فى معدته بكل قوته ، وهو يستل خنجرًا ماضيًا ، و ..

وفجأة ، انتزع (فاى) الوثيقة من جيب (يائيل) ، ثم جذب خيط مظلة هذا الأخير ، وهو يقول فى اقتضاب :

ـ وداعًا .

انخفضت سرعة هبوط (يائيل) بغتة ، مع فتح مظلته ، فى نفس اللحظة التى تركه فيها (فاى) ، ليواصل هبوطه الحر بسرعة أكبر ، فصرخ (يائيل) فى غيظ وثورة ، عندما انتبه إلى ما فعله خصمه :

ـ أيها الوغد الحقير .. لقد خدعتنى .. لقد خدعتنى .

لم يكن أمامه ما يفعله ، وهو يهبط بتلك السرعة المنتظمة ، البطيئة نسبيًا ، وعيناه تراقبان فى حنق هبوط (فاى) الحر السريع ، قبل أن يفتح مظلته ، بعد أن استعاد الوثيقة الإسرائيلية ..

وبكل غيظه وحنقه ، التقط (يائيل) جهاز اللاسلكى الصغير من حزامه ، وهتف عبره فى حدة :

ـ من (ص ـ ٧) إلى المراقب الأرضى .. انتحارى مصرى استعاد الوثيقة ، وهو يهبط الآن فى قلب (سيناء) .

قفز رجل (الموساد) (زايون) من مقعده كالمصعوق ، عندما تلقّى الرسالة ، وصرخ فى غضب :

ـ ماذا تقول ؟!.. مصرى استعاد الوثيقة ؟!.. كيف تسمح له بهذا ؟.. كيف ؟

أجابه (يائيل) فى عصبية :

ـ لقد خدعنى ، واستعادها فى الجو .. حاولوا الإطباق عليه فور هبوطه .. إننى أراه أسفلى .. لقد فتح مظلته بالفعل ، وسيهبط فى المنطقة الخامسة .

وعيناه تراقبان فى حنق هبوط (فاى) الحر السريع ، قبل أن يفتح مظلته ، بعد أن استعاد الوثيقة الإسرائيلية ..

صرخ (زايون) ، وهو ينهى الاتصال :

ـ أيها الغبى .. أيها الغبى .

ثم عاد إلى مقعده ، فى السيارة (الجيب) الكبيرة ، وهو يقول لسائقها فى حدة :

ـ انطلق بنا إلى المنطقة الخامسة .. وفورًا ..

انطلق السائق عبر صحراء (سيناء) ، إلى المنطقة التى حملت عسكريًا الرقم خمسة ، فى حين غيَّر (زايون) تردد جهاز اللاسلكى ، وهو يقول :

ـ هنا العقيد (زايون) ، من (الموساد) .. أريد التحدث مع النقيب (بن عازر) ، قائد أمن المنطقة الخامسة فورًا .

مضت لحظات من الصمت ، ثم ارتفع صوت أجش ، يقول :

ـ هنا النقيب (بن عازر) .

قال (زايون) فى صرامة :

ـ اسمعنى جيدًا أيها النقيب .. الأمر بالغ الأهمية والخطورة ، إلى حد يفوق كل تصوراتك ، لذا فسأطالبك بتنفيذ أوامرى مباشرة دون مناقشة ، على أن يبدأ هذا فورًا ، وأنا فى طريقى إليك .

قال النقيب (بن عازر) بصوته الأجش :

ـ هذا يحتاج إلى تأكيد أمنى .

أجابه (زايون) فى سرعة :

ـ كلمة السر (فجر) ، والكود السرى (٧٧٧) .. أهذا يكفيك !

قال (بن عازر) :

ـ بكل تأكيد .. أوامرك يا سيادة العقيد .

قبضت أصابع (زايون) على جهاز اللاسلكى فى قوة ، على نحو يشفّ عن غضبه وثورته ، وهو يقول :

ـ هناك جاسوس يهبط الآن بالمظلة فى منطقتك .. أريد هذا الجاسوس بأى ثمن .. لا توجد أية أهمية للإبقاء عليه حيًا .. اقتلوه فور رؤيته ، ولكن لا يمس أحدكم جثته ، بأى حال من الأحوال .. هل تفهم ؟

أجابه (بن عازر) فى حزم :

ـ أفهم يا سيادة العقيد .. هل من أوامر أخرى ؟!

قال (زايون) فى صرامة :

ـ نعم .. ابدأ التنفيذ على الفور .

قال (بن عازر) فى حماس :

ـ سمعًا وطاعة يا سيادة العقيد ..

وأنهى الاتصال ، وهو يغمغم بصوته الأجش الغليظ :

ـ جاسوس يهبط بالمظلة فى منطقتى .. عظيم .. أخيرًا سنحصل على قدر من النشاط ، بعد فترة خمول طويلة .

ثم هتف ينادى مساعده الأوّل ، وقال له فى صرامة :

ـ أريد فرقة من عشرة رجال ، وثلاثة من أفضل القنّاصة لدينا ، مع بنادق مزوّدة بمناظير مقرّبة ، وأجهزة للرؤية الليلية ، فى ثلاث سيارات (جيب) قوية ، من طراز (لاندروفر) .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة جذلة ، مع استطرادته :

ـ فلدينا رحلة صيد .

ردّد المساعد فى دهشة :

ـ رحلة صيد ؟!.. وما الذى يمكن اصطياده هنا ؟

أطلق (بن عازر) ضحكة ساخرة طويلة ، قبل أن يقول :

ـ جواسيس .

قالها ، وراح يضحك فى مرح ، على نحو ضاعف من دهشة مساعده ، الذى لم يجد أمامه سوى أن يغمغم :

ـ كما تأمر يا سيّدى .

وفى حماس جذل ، ارتدى (بن عازر) ثياب الميدان ، وخرج لمقابلة فرقة الصيد التى أعدّها ، وقفز داخل إحدى السيارات الثلاث ، وهو يقول فى صرامة :

ـ هيا يا رجال .

انطلقت السيارات الثلاث القوية ، فوق رمال الصحراء ، و(بن عازر) يراقب السماء بمنظاره المقرّب ، ذى القدرة على الرؤية الليلية ، ورجاله كلهم تحفّز وإصرار ، و ..

وفجأة ، هتف (بن عازر) فى حماس :

ـ ها هوذا .

كان المنظار يصبغ السماء أمامه بلون أخضر باهت ، ولكن المظلة وصاحبها بديا واضحين تمامًا أمامه ، فأشار إلى السيارات الثلاث بالتوقف ، وهو يقول للقنّاصة الثلاثة :

ـ ها هوذا الهدف .. هل ترونه فى وضوح ؟

أجابوه فى آن واحد ، وهم ينظرون عبر مناظيرهم ، المجهّزة للرؤية الليلية :

ـ بكل وضوح .

ارتسمت على شفتيه ابتسامة جذلة ، وهو يقول :

ـ عليكم به إذن .

كانت المظلة تقترب كثيرا من الأرض ، عندما صوّب القنّاصة الثلاثة بنادقهم إلى صاحبها ، و ..

وانطلقت رصاصاتهم فى سخاء ..

وأصابت هدفها ..

كلها .

* * *

٢ ـ أرض العدو ..

انتفض جسد قائد الطائرة المصرية فى عنف ، مع دوى الانفجار ، وانطلقت شهقة من بين شفتى مساعده ، فى حين انطلقت صرخات الركاب المذعورة ، مع كتلة اللهب الهائلة ، التى ملأت السماء ، وأضاءتها على نحو مخيف بضع لحظات ، هتف بعدها قائد الطائرة فى دهشة تمتزج بالفرح :

ـ رباه !.. إنه لم يطلق صاروخه نحونا ، وإنما أصابه صاروخ آخر قبل أن يفعل .. ترى كيف حدث هذا ؟

أشار مساعده إلى النافذة أمامه ، وقال وجسده يهتز انفعالا وحماسًا :

ـ فعلها نسورنا يا سيدى .

اتسعت عينا قائد الطائرة فى انبهار ، وهو يحدّق فى المقاتلات الخمس المصرية ، التى تتجه نحوه ، بعد أن نسفت إحداها المقاتلة الإسرائيلية ، قبل لحظة واحدة من ضغط قائدها على زر إطلاق صاروخه ، نحو الطائرة المدنية ، وهتف فى سعادة ، وهو يحدّق فى عدادات الطائرة :

ـ رباه !.. هذا صحيح .. مناورتنا قذفت بنا دون أن ندرى ، إلى مجالنا الجوى .. لم يعد باستطاعة الإسرائيليين الظفر بنا .. لقد نجونا .. نجونا .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان قائد السرب المصرى يقول للمقاتلة الإسرائيلية ، عبر موجة اتصال دولية ، فى صرامة شديدة :

ـ أنت تقتحم المجال الجوى المصرى .. عد فورًا ، وإلا ألحقناك بزميلك .

ارتجف قائد المقاتلة الإسرائيلية ، وهو يتصل بـ (زايون) على موجة أخرى ، قائلا :

ـ عملية إسقاط الطائرة المدنية المصرية فشلت .. المصريون أسقطوا مقاتلة زميلى ، وسأضطر للعودة .

هتف به (زايون) فى توتر :

ـ فلتذهب الطائرة المصرية إلى الجحيم .. لن يمكنهم إثبات أى شىء يخصنا ودعهم يرحلون ، فالوثيقة لم تعد على متن الطائرة .

استدار الطيَّار الإسرائيلى ، وانطلق عائدًا إلى قاعدته ، فى حين أحاطت المقاتلات المصرية الخمس بالطائرة المدنية ، وهتفت (وفاء) داخلها فى سعادة :

ـ مقاتلات مصرية !.. لقد نجونا .. نجونا .

انطلقت صيحات الفرح فى الطائرة ، وراح الجميع يتعانقون ، ويتبادلون التهنئة والتحية ، ويتصافحون فى حرارة ، وصوت القائد يأتى عبر جهاز الاتصال الداخلى ، قائلا بلهجة تحمل كل الارتياح والسعادة :

ـ سيِّداتى سادتى .. يسعدنى أن أبلغكم أن مشكلتنا قد انتهت بشكل حاسم والحمد لله .. لقد نجونا ، وعدنا إلى مجالنا الجوى ، فى حماية نسورنا البواسل ، وسيواصلون حمايتنا لساعة أخرى ، حتى نصل إلى ميناء (القاهرة) الجوى .. تحياتى لكم ، وتهانئى مرة أخرى بالنجاة ..

احتضنت (وفاء) (أحمد) الصغير ، ودموع الفرح تنهمر على وجهها فى غزارة ، وعقلها يسترجع تلك العبارة القصيرة ، التى ألقاها إليها (فاى) ..

« عمك يرسل إليك تحياته .. » .

واستعادت مشهد ذلك الشاب الهادئ الحازم ، وهو يلقى عبارته ، ثم يندفع للحاق بالمختطف الثالث ، فى مخزن الطائرة ، ووجدت نفسها تتساءل فى اهتمام : ترى أين ذهب ذلك الشاب ، وماذا أصابه فى بطن الطائرة ؟!..

وبقيت تساؤلاتها مدفونة فى صدرها ، وهى تنمو ..

وتنمو ..

وتنمو ..

* * *

أشعل رئيس الجمهورية غليونه فى تمهُّل ، كعادته كلما استغرق فى تفكير عميق ، ثم نفث دخانه بضع لحظات فى بطء وشرود ، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة كبيرة ، وهو يواجه الحاضرين ، قائلا :

ـ إذن فقد نجح ابننا فى إنقاذ طائرتنا ، وتخليصها من المختطفين .. عظيم .. عظيم .. هذا خبر يستحق أن تتداوله وسائل الإعلام العربية والعالمية بحق .

تنحنح مدير المخابرات ، قبل أن يقول :

ـ ولكننا لا نعلم بعد ما إذا كان قد نجح فى مهمته الأخرى أم لا ..

نفث الرئيس دخان غليونه مرة أخرى ، وهو يتطلع إليه فى صمت ، قبل أن يشير بيده ، قائلا :

ـ المفترض أنه فعلها ، ما دام قد أنقذ الطائرة ، وسيطر على الموقف هناك .

أشار مدير المخابرات بيده ، قائلا :

ـ لماذا لم يرسل إشارة بهذا إذن ؟.. نحن نعلم أن المختطفين أفسدوا جهاز اللاسلكى بالطائرة ، ولكنه يحمل جهازه الخاص ، فلم لم يستخدمه لإعلان انتصاره ، كما تقتضى إجراءات الأمن والتعامل ؟

انعقد حاجبا الرئيس لحظة ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ أنت على حق .. الموقف يثير الريبة إلى حد ما .

ثم أشار بيده ، مستطردًا :

ـ ولكن هذا أمر نتدارسه فيما بيننا ، وليس فى اجتماع كهذا ، تتابعه كل الأعين والعقول .. المفترض أننا هنا من أجل طائرة مختطفة ، ولقد تم تحرير هذه الطائرة ، ولم يعد هناك مبرّر منطقى لاستمرار اجتماعنا ، فلا أحد سوانا ، والمخابرات الإسرائيلية ، يعلم بأمر تلك الوثيقة ، ولا بوجود أبننا هذا ..

والتفت إلى مدير المخابرات ، متسائلا :

ـ ماذا تطلقون عليه ؟

أجابه الرجل فى سرعة :

ـ (فاى) يا سيادة الرئيس .

هزّ الرئيس رأسه ، مغمغمًا :

ـ اسم عجيب !

ثم نفث دخان غليونه ، قبل أن يستطرد :

ـ المهم أن الشق العلنى قد انتهى أيها السادة ، وطبقا للأعراف المتبعة ، سيخرج رئيس الوزراء الآن ، بصحبة قائد القوات الجوية ، للإدلاء ببيان حول الموقف ، وشرح كيفية إنقاذ الطائرة المدنية ، دون الدخول فى التفاصيل الفعلية . وبهذا ينتهى الحدث من الناحية الرسمية ، ونعود كلنا إلى منازلنا ، أمام عدسات الصحفيين والمصورين .

ومطّ شفتيه لحظة ، وهو يتنهّد فى عمق ، مضيفا :

ـ أما من الناحية العملية ، فعلينا أن نتابع موقف الوثيقة الإسرائيلية ، وهذا يدخل تحت نطاق عملك يا مدير المخابرات .

أجابه الرجل فى حزم :

ـ نحن نتابع الموقف بكل اهتمام وانتباه يا سيادة الرئيس .

أومأ الرئيس برأسه متفهمًا ، وهو يقول :

ـ عظيم .. عظيم ..

ثم نهض ، مستطردًا فى حزم :

ـ سأعود إلى منزلى أيها السادة ، حتى تنتهى هذه الليلة ، من الناحية الرسمية والصحفية ، ولكننى سأظل مستيقظا ، لإبلاغى بأية تطورات فى هذا الشأن .

قالها الرئيس ، وانصرف عائدًا إلى منزله ، فى حين خرج رئيس الوزراء ، وقائد القوات الجوية لمواجهة الصحفيين ورجال الإعلام ، أما مدير المخابرات العامة ، فقد استقلّ سيارته ، عائدًا ،

إلى مكتبه ، وفى عقله يدور تساؤل واحد ..

ترى لماذا انقطعت أخبار (فاى) هكذا ؟!..

لماذا ؟..

لماذا ؟..

* * *

انعقد حاجبا (زايون) فى شدة ، مع دوى رصاصات القناصة ، الذى بلغ مسامعه ، وهو ينطلق نحو موقع الهبوط ، فالتقط جهاز اللاسلكى من حزامه ، وهتف عبره فى انفعال :

ـ من العقيد (زايون) إلى النقيب (بن عازر) .. ماذا يحدث عندك ؟

نقلت إليه موجات اللاسلكى ضحكة عالية ظافرة ، تحمل صوت (بن عازر) الأجش الغليظ ، وهو يقول :

ـ لقد ظفرنا به يا سيادة العقيد ، ولم يكن الأمر عسيرًا كما كنت تتصوّر .

سأله (زايون) فى توتر :

ـ هل رأيت جثته بنفسك ؟

أجابه (بن عازر) فى هدوء مستفز :

ـ نحن فى طريقنا إليها الآن .

قال (زايون) فى صرامة :

ـ ما زالت أوامرى سارية .. لا تلمسوا جثته ، حتى أصل إليكم .

أطلق (بن عازر) ضحكة أخرى ، قبل أن يقول :

ـ لا بأس يا سيادة العقيد .. لا بأس .. من يحب لمس جثة جاسوس ؟!..

اطمئن .. سنترك الغنيمة كلها لك .

أنهى (زايون) الاتصال ، وهى يعقد حاجبيه ، مغمغما فى حنق :

ـ يا للسخافة !.. كيف يضعون رجلا مثله على رأس قطاع أمنى كامل ؟

أجابه سائق السيارة فى حذر :

ـ النقيب (بن عازر) من أكثر ضباط جيش الدفاع كفاءة يا سيدى ، ومنذ تسلّم عمله فى القطاع الخامس ، لم تحدث أية مشكلات كبيرة ، وانخفض معدّل الجريمة ، والاعتداء على الجنود ، إلى أدنى حد بين المناطق الأمنية كلها .

رمقه (زايون) بنظرة غاضبة ، وهو يقول :

ـ من الواضح أنك شديد الإعجاب به .

أجابه السائق ، وهو يزن كلماته فى دقة :

ـ بل أردّد ما سمعته عنه يا سيادة العقيد .

مطّ (زايون) شفتيه مستنكرا ، وهو يقول :

ـ فلنأمل أن يستحق كل ما يقال عنه .

لم يتبادل بعدها كلمة واحدة مع السائق ، حتى لاحت لهما السيارات الثلاث القوية ، وهى تقف عند منطقة عارية ، وداخلها فرقة الصيد ، وإلى جوارها يقف النقيب (بن عازر) ، الذى ارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة ، لم يرق مضمونها

لـ (زايون) كثيرا ، وخاصة مع اللهجة شبه الساخرة ، التى استقبله بها النقيب ، وهو يقول :

- مرحبا يا سيادة العقيد ، كم يسعدنى أن ألتقى بواحد من أساتذة (الموساد) هنا . فقد اعتدنا ألا نستقبل المتميزين إلا نادرا .

تجاهل (زايون) هذا الأسلوب الاستفزازى ، وهو يسأله :

- أين جثة الجاسوس ؟!

أشار (بن عازر) إلى جثة ملقاة فوق الرمال ، والدماء تغرق نصفها العلوى ، ومازالت المظلة تتصل بها ، وقال :

- ها هى ذى .. لقد أصبناه مباشرة ، من المحاولة الأولى ، فقناصتى من أفضل القناصة ، فى (سيناء) كلها .

تركه (زايون) يلقى خطبته ، واندفع نحو الجثة ، وانحنى يلقى نظرة عليها ، على الضوء المنبعث من مصابيح السيارات الثلاث ، ثم احتقن وجهه بشدة ، وهو يصرخ :

- أيها الأغبياء !.. أيها الأغبياء !

هذا لأن الجثة الملقاة أمامه لم تكن جثة (فاى) .

وإنما كانت جثة الإسرائيلى (يائيل) ..

وبكل الثورة والغضب فى أعماقه ، صرخ (زايون) :

- إنه ليس هو .. ليس المقصود أيها الحمقى .

انعقد حاجبا (بن عازر) فى غضب ، وهو يقول :

- ومن أدرانا أنه ليس الشخص المقصود ؟!.. لقد طلبت منا اقتناص شخص مجهول ، يهبط بمظلة فى قطاعنا ، ففعلنا .. لقد نفذنا أوامرك بمنتهى الدقة ، وأصبنا الجاسوس .

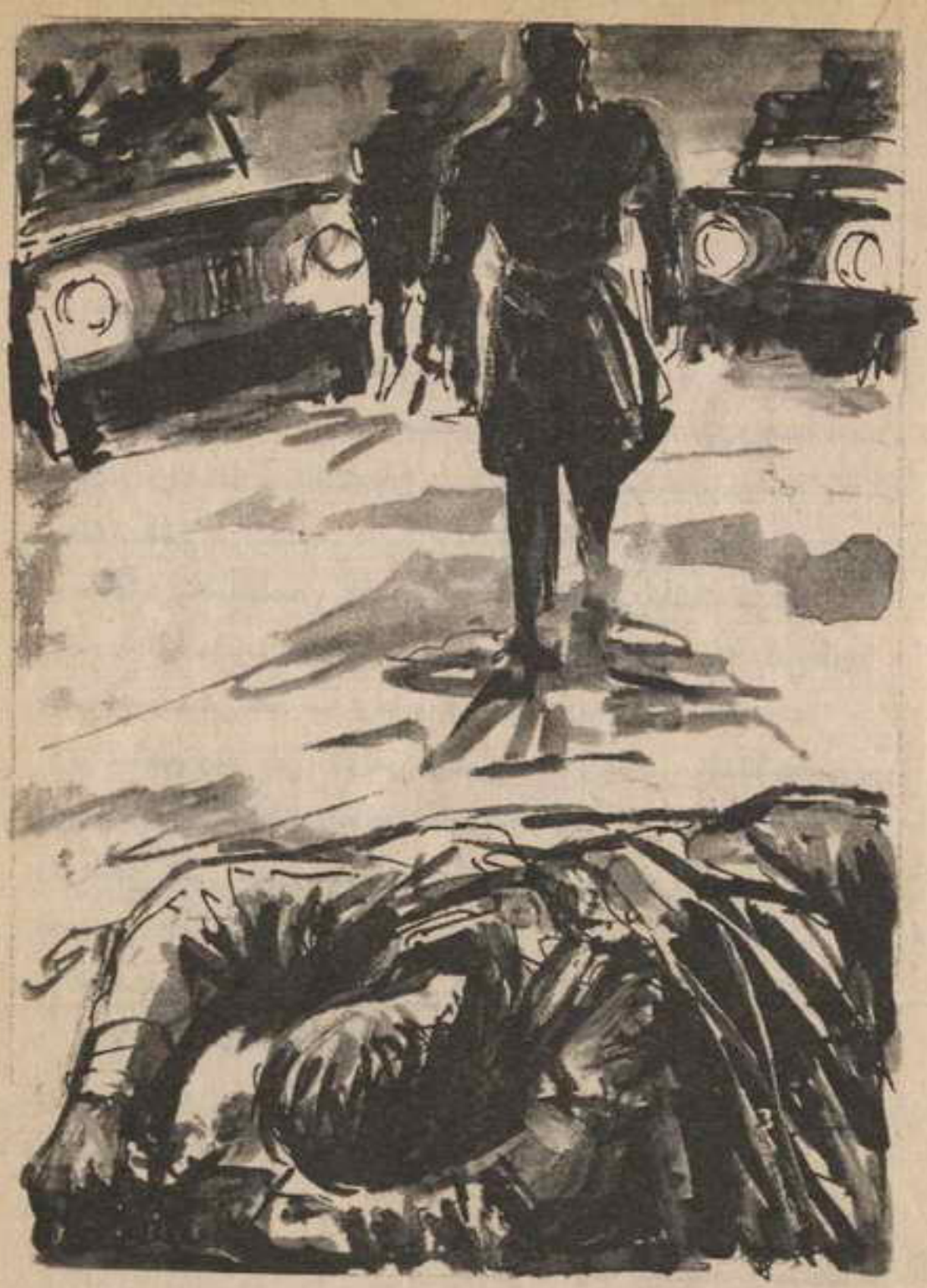

تركه (زايون) يلقى خطبته ، واندفع نحو الجثة ، وانحنى يلقى نظرة عليها ..

صاح (زايون) فى ثورة :

ـ أى جاسوس ؟! .. إنه أحد رجالنا .. واحد من أفضل رجالنا .

هتف (بن عازر) :

ـ وما شأننا ؟.. إننا ننفذ أوامرك فحسب .

احتقن وجه (زايون) بشدة ، وكاد ينفجر فى وجه (بن عازر) ، إلا أنه لم يلبث أن سيطر على مشاعره ، وهو يتلفت حوله ، قائلا :

ـ الآخر هنا حتما .. لقد هبط قبله .. إنه فى مكان ما هنا .

ثم استدار إلى (بن عازر) ، ووضع يده على كتفه فى قوة ، وهو يضيف فى صرامة وحزم :

ـ استمع جيدا إلى الأوامر الجديدة يا رجل .. هناك جاسوس فى منطقتك الأمنية ، وبحوزته أسرار بالغة الخطورة والأهمية ، ولو نجح فى الفرار سيعرّض أمن (إسرائيل) للخطر ، وأنت المسئول الأوّل عن هذا .. هل تفهم ؟

انعقد حاجبا (بن عازر) فى شدة ، وهو يقول :

ـ ألا توجد أية معلومات بخصوص هذا الجاسوس ؟

هزّ (زايون) رأسه نفيا ، وهو يجيب :

ـ مطلقا .. لسنا نعرف حتى هيئته ، ولا كيف يبدو .. كل ما نعرفه عنه أخبرتك به بالفعل .

ثم مال نحوه بشدة ، حتى ارتطمت أنفاسه بوجهه ، مستطردا فى صرامة :

ـ والآن ، ماذا ستفعل بشأنه ؟

صمت (بن عازر) لحظة ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ الكثير .

ثم شدّ قامته فى اعتداد ، والتفت إلى رجاله ، مستطردا :

ـ هيا يا رجال .. سيتغيّر التشكيل طبقا للمتغيرات الجديدة .. سننقسم إلى ثلاث فرق .. كل سيارة ستضمّ أربعة رجال وأحد القناصة ، وسيصحبنى العقيد (زايون) فى السيارة الثالثة ، وسنقوم بتمشيط المنطقة شبرا شبرا ، على أن يتم الاتصال اللاسلكى بيننا بشكل منتظم ، ومهمتنا هى البحث عن جاسوس ، والقضاء عليه ، ومنعه من الفرار بأى ثمن .. هل استوعبتم الأمر ؟

أجابوه بصوت رجل واحد :

ـ بالتأكيد .

وهنا ، ارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة واثقة ، وهو يلتفت إلى (زايون) ، قائلا فى حسم :

ـ يمكنك اعتبار الأمر منتهيا .. خذها كلمة من (بن عازر) .

واتسعت ابتسامته أكثر وأكثر ، فى حين انعقد حاجبا (زايون) ، وهو يلقى على نفسه سؤالا بالغ الأهمية .

ما دام ذلك المصرى قد هبط بالفعل فى قلب (سيناء) ، وفى تلك المنطقة العارية تماما من الصحراء ، فأين يمكن أن يختبئ ؟!.

أين ؟!..

* * *

عندما جذب (فاى) حبل مظلة (يائيل) ، كانت خطته تعتمد

على اختصار الصراع ، بينه وبين هذا الأخير ، وإجباره على الهبوط بسرعة أقل منه نسبيًا ، بحيث يصل هو إلى الأرض أولا ، حاملا الوثيقة السرية ، فتتضاعف فرصته المحدودة فى النجاة من هذا الموقف العسير ..

ولإنجاح خطته ، واصل (فاى) هبوطه الحر لدقيقة أخرى ، قبل أن يجذب حبل مظلته بدوره ..

وعندما فعل ، كانت رمال (سيناء) قد أصبحت قريبة إلى حد كبير ، حتى أن فتح المظلة لم ينجح فى التخفيف من سرعته إلى الحد الكافى ، فراحت الأرض تقترب منه بسرعة مخيفة ، و ..

وانطلقت ذاكرة الشاب فجأة ..

لقد عاش هذا الموقف من قبل ..

الهبوط بسرعة كبيرة، والاقتراب المخيف من رمال (سيناء).

وبالتحديد رمال (سيناء) ..

من المؤكد أنه عاش هذا الموقف من قبل (*)

ولكن لا وقت للتفكير فى هذا الآن ..

إنه يقترب من الرمال فى سرعة ، ولابد أن ينفذ كل ما تعلمه فى هذا الشأن ..

وفى سرعة ومهارة ، ضمَ ركبتيه إلى صدره ، ودفع رأسه بينهما ، وتكوّر على نحو بالغ المرونة والرشاقة ..

ثم ارتطم بالرمال ..

(*) راجع عدد (كوكتيل ٢٠٠٠) العشرين (البعث ـ وقصص أخرى) .

لم يكن الارتطام عنيفا كما توقّع ، ولكنه أعاد إلى ذاكرته مشهدا مماثلا ..

مشهد ارتطامه برمال (سيناء) ..

ولثوان ، ترك الشاب جسده يسترخى فوق الرمال ، وهو يحاول اعتصار ذاكرته ، واسترجاع ذلك المشهد القديم ..

ثم نفض المحاولة عن كيانه كله فى حزم ، وهو ينهض ليجذب مظلته ، ويطويها ، ثم يدفنها فى قلب الرمال ..

لقد أصبح داخل (سيناء) ..

وفى المنطقة التى يحتلّها العدو بالتحديد (*)

وفجأة ، صك مسامعه دوى الرصاصات ..

واستدار بكيانه كله يتطلّع إلى منطقة قريبة ، ووقع بصره على ثلاث سيارات (جيب) قوية ، من طراز (لاند روفر) ، وعلى متنها ثلاثة من القنّاصة ، يمطرون (يائيل) برصاصاتهم ..

ومن النظرة الأولى ، فهم (فاى) الموقف كله ..

لا ريب فى أنهم اقتنصوا (يائيل) بدلا منه ..

هذا هو التفسير الوحيد ، لإطلاق الإسرائيليين نيرانهم على مظلى إسرائيلى ..

وهذا يعنى أنهم يسعون من أجله هو ..

وبكل قوتهم ..

(*) فى ذلك الزمن ، لم تكن (مصر) قد استرجعت (سيناء) بالكامل ..

وبسرعة ، درس (فاى) الموقف كله ، وأدرك أنه لو تحرك من مكانه الآن ، فسيكشفون أمره حتما ، وأبصارهم كلها متجهة إليه ..

لذا فقد كمن فى مكانه ، راقدا على رمال (سيناء) ، يراقب الموقف بكل انتباه ..

ولم يمض وقت طويل ، حتى ظهر (زايون) ، ودارت تلك المحادثة العنيفة ، بينه وبين (بن عازر) ..

ومع ابتعاد الأنظار عنه ، فى تلك اللحظات ، راح الشاب يزحف مبتعدا ، فى محاولة لبلوغ تبة رملية بعيدة ، تصلح للاختباء خلفها ..

وبكل سرعة ومهارة ، أخذ يزحف ، ويزحف ، ويزحف ..

وعندما أصبحت تلك التبة على مسافة أمتار خمسة منه ، سمع من خلفه بغتة هدير محرك سيارة (لاند روفر) قوية ، تنطلق فى اتجاهه مباشرة ..

وأدرك الشاب أن عملية البحث عنه قد بدأت ..

واندفع يحاول الزحف بسرعة أكبر ، نحو التبة القريبة ..

ولكن (اللاند روفر) كانت تقترب ، وتقترب ، و ..

وفجأة ، غمرت أضواء مصابيحها المنطقة كلها ..

ولم يعد بلوغ التبة ممكنا ..

لم يعد كذلك أبدا ..

* * *

٣ - رجل واحد ..

اندفعت (وفاء) تلقى نفسها بين ذراعى عمها (نسيم) ، رجل المخابرات القدير ، وانفجرت باكية فى انفعال ، وسط مطار (القاهرة) ، وهى تهتف :

ـ آه يا عمى (نسيم) .. لم أتوقع أبدا أننى سأراك ثانية .. لم أتصور أننا سنحيا ، حتى نصل إلى (القاهرة) .

ضمها (نسيم) إليه فى رفق وحنان ، وهو يربت على شعرها ، قائلا :

ـ لقد وصلتم جميعا سالمين يا صغيرتى ، فيما عدا رجال الأمن الثلاثة .. وحمدا لله على نجاتكم .

ابتعدت عنه بمقدار ذراعها ، وهى تمسك كتفيه فى قوة ، هاتفة :

ـ ولكن الشاب الذى أرسلته كان رائعا يا عمى .. لقد هاجمهم كالأسد ، وقضى عليهم فى لحظات معدودة .. إنه رائع بحق .

انعقد حاجبا (نسيم) فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ الشاب الذى أرسلته ؟!.. ومن وضع فى رأسك أننى المسئول عن هذا ؟

أجابته فى حماس :

ـ هو أخبرنى يا عمى .

ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يقول فى غضب :

ـ هو أخبرك ؟!

ترددت لحظة ، قبل أن تجيب :

ـ ليس بشكل مباشر .. فقط قال لى : إنك ترسل إلىّ تحياتك .

زفر (نسيم) فى حنق ، مغمغمًا :

ـ يالحماقة !

سألته فى قلق :

ـ هل ارتكب خطأ بهذا ؟

أبعدها فى رفق ، قائلاً :

ـ لا تقلقى نفسك بالأمر ، حمدًا لله على سلامتك .. هيا سيصحبك سائقى إلى المنزل ، فما زال لدى ما أقوم به هنا .

قالت مترددة :

ـ ألا يمكننى البقاء ؟!

هزّ رأسه فى حزم ، مجيبًا :

ـ كلاّ .

كانت تعلم أنه ما من جدوى من مناقشته ، عندما يتعامل بهذا الحزم ، فانصرفت صاغرة مع السائق ، فى حين اتجه هو إلى الطائرة ، وهو يقول لنفسه محنقًا :

ـ يا لسخافة هذا الشاب ؟.. ألا يمكنه استيعاب قواعد الأمن السرية قط ؟!.. ماذا لو أن أحدهم فى الطائرة يعرف (فاتن) ، ويعرفنى ، ويمكنه أن يتتبّع الأمر ، ويتوصّل إلى أن المخابرات العامة وراء عملية الإنقاذ ؟!.. بل وماذا لو كشفوا حقيقته ؟!

هزّ رأسه فى سخط ، وهو يدلف إلى الطائرة ، ويسأل قائدها :

ـ هل يمكنك أن تصف لى ما حدث بالضبط ؟!

أجابه الرجل فى ارتياح :

ـ كلاّ للأسف ، فلم أشاهد الموقف بنفسى ، ولكن الكل أجمعوا على أن الشاب كان رائعًا بحق .

سأله (نسيم) فى اهتمام :

ـ أين ذهب إذن .. هل تعتقد أنه قفز من الطائرة لسبب ما ؟

أجابه الرجل فى حماس :

ـ بالتأكيد .. لقد تلقينا إشارة فى كابينة القيادة ، تفيد بأن باب المخزن الداخلى تم إغلاقه فى إحكام ، ثم فتح أحدهم مخرج الطوارئ ، وعندما تطلّع مساعدى عبر النافذة ، شاهد شخصًا يقفز من مخرج الطوارئ ، ثم تبعه آخر مباشرة ، وما دام الكل يؤكدون أنه لم يكن هناك سوى المختطف الثالث والشاب ، فهما القافزان حتمًا .

انعقد حاجبا (نسيم) ، وهو يدرس الموقف فى ذهنه أكثر من مرة ..

لو أن المختطف الثالث قفز من مخرج الطوارئ فى بطن الطائرة ، ثم لحق به (فاى) ، فهذا يعنى أن الإسرائيلى استعاد الوثيقة ، ثم بادر بالفرار ، لثقته فى أنه سيهبط فى أرض تحت السيطرة الإسرائيلية ، ولم يتردّد (فاى) لحظة واحدة فى اللحاق به ، على الرغم مما يمثله هذا من خطورة بالغة ..

هذا هو التفسير الوحيد ..

وعلى الرغم من حنقه ونقمته على (فاى) منذ لحظات ، وجد نفسه يقول فى حماس :

ـ ياله من شاب رائع !

سأله قائد الطائرة فى دهشة :

ـ ماذا تقول يا سيدى ؟

لوّح (نسيم) بكفه ، قائلا :

ـ لا عليك يا رجل .. إنه مجرّد انفعال بدائى بسيط .. دعنا نفحص صناديق الآثار أولاً ، حتى يمكننا تكوين صورة واضحة عن الموقف .

تبعه قائد الطائرة إلى المخزن فى حيرة ، فى حين راح هو يفحص الصناديق ، ليتأكد من أن الوثيقة لم تعد داخلها ، قبل أن يقول لنفسه فى حزم :

ـ هذا يعنى أن مهمة الشاب لم تنته بعد ، وأن عناده سيدفعه إلى مواصلة القتال للفوز ، مهما كان الثمن .

كانت هذه هى طبيعة الشاب ، التى يفهمها (نسيم) جيدًا .

إنه لا يتوقّف عن القتال قط ، فى سبيل الفوز ، مهما كانت المصاعب والعقبات .

ولكن المشكلة الكبرى هذه المرة ، هى أنه يقاتل بظهر عار ، وسط صحراء جرداء ، فى قلب استحكامات العدو ..

وفى قلب الخطر ..

خطر بلا حدود ..

* * *

انطلق ضوء مصباحى السيارة (الجيب) ، يشقّ ظلمة الليل ، فى قلب (سيناء) ، وهى تنطلق بركابها ، بحثًا عن الشاب ،

الذى التصق بالرمال فى قوة ، اعتمادًا على زيه المموّه ، الذى يصعب تمييزه وسط الصحراء ..

ومن حسن حظه أن الرمال من حوله كانت مرتفعة إلى حد ما ، حتى أنها حجبته عن أنظار الرجال الخمسة داخل السيارة ، التى تجاوزته بمترين أو ثلاثة ، قبل أن يقول أحد ركابها فى حزم :

ـ مهلا .. فلنتوقّف هنا .

توقّفت السيارة ، على مقربة منه ، والقنّاص داخلها يسأل زميله فى اهتمام :

ـ ولماذا نتوقّف هنا بالتحديد ؟

أجابه زميله ، وهو يحمل مدفعه الآلى فى حذر :

ـ الجاسوس هبط هنا ، والمنطقة كلها شبه عارية كما ترى ، والأماكن الوحيدة الصالحة للاختباء ، هى تلك التباب الرملية ، المنتشرة هنا وهناك ، ولو أنه فى منطقتنا ، فسنجده خلف هذه التبة على الأرجح .

عقد القنّاص حاجبيه ، وهو يقول :

ـ أنت على حق .

ثم جذب بندقيته ، مستطردًا :

ـ اذهبوا للبحث عنه هناك ، وسأنتظر هنا لحراسة السيارة .

هبط الجنود الأربعة من (الجيب) ، وهم يحملون مدافعهم الآلية ، وقال أحدهم للقنّاص ، وهم يتجهون إلى التبة :

ـ لو لمحته يجرى ، أطلق النار عليه على الفور .

ابتسم القنّاص ، ولوّح ببندقيته ، قائلا :

ـ اطمئن .. إنه مضمار تفوّقى ..

راقبهم الشاب من مكمنه ، وهم يتجهون إلى التبة ، ويدورون حولها من الجانبين ، فى مناورة حذرة متحفزة ، وألقى نظرة سريعة على القنّاص ، الذى بقى داخل السيارة ، وعينه على منظار بندقيته ، المجهّز للرؤية الليلية ، يدور به فيما حوله فى بطء .

كان من الواضح أنهم سيكشفون أمره إن عاجلاً أو آجلاً ، فقد ساعده الحظ على الإفلات منهم مرة ، ومثل هذه المصادفات لا تتكرّر أبدًا ، فى الصراعات المباشرة .. ثم إن زاوية حركتهم ، عندما يعودون إلى السيارة ، ستجعله واضحًا للأعين حتمًا ..

هذا ما لم يكشف ذلك القنّاص أمره أوّلاً ، بمنظاره المجهّز للرؤية الليلية .

وبحسبة بسيطة ، أدرك الشاب أن استمرار اختبائه لن يكون لصالحه قط ..

وأنه ليس أمامه سوى تنفيذ مبدأ (نابليون) (*)

الهجوم خير وسيلة للدفاع ..

(*) نابليون بونابرت : (١٧٦٩ ـ ١٨٢١) : إمبراطور (فرنسا) ، ولد بجزيرة (كورسيكا) وتخرّج ضابطًا للمدفعية فى (فرنسا) ، دافع عن حكومة الإدارة ، فعين قائدًا للحملة الإيطالية (١٧٩٦ ـ ١٧٩٧) م ، وقاد الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨) ، وأسقط حكومة الإدارة ، وأقام القنصلية ، ثم أعلن نفسه امبراطورًا (١٨٠٤) م ، وعلى الرغم من انتصاراته القوية ، هُزم أخيرًا فى (واترلو) (١٨١٥) ، وتم نفيه إلى جزيرة (سانت هيلانة) حيث مات هناك .

ولكن حتى الهجوم له أسلوبه المدروس ، فى مثل هذه الظروف ..

فلو انطلقت رصاصة واحدة ، سيعنى هذا الإعلان عن وجوده ، وتحديد منطقة الصراع بدقة تكفى لتضافر الجميع ضده ..

وهذا آخر ما يسعى إليه ..

وفى حزم ، انتزع نفسه من مكانه ، وانطلق بأقصى سرعته نحو القنّاص ، الذى فوجئ باقتضاضته ، فاتسعت عيناه فى قوة ، وهو يدير بندقيته ، هاتفًا :

ـ اللعنة !.. من أين ؟..

لم يكن قد أتمّ عبارته بعد ، عندما وثب (فاى) نحوه ، وركله فى وجهه بكل قوته ، قبل أن يستقر داخل السيارة ، ويحطّم أنفه بلكمة كالقنبلة ، وهو ينتزع البندقية من يده ..

ولأن عمل القنّاص لا يتضمّن قط أية احتكاكات مباشرة ، فقد كان القتال سريعًا ، وحسمه الشاب بلكمة أخيرة ، حطمّت أنف الإسرائيلى ، وأطاحت به من السيارة إلى رمال الصحراء فاقد الوعى ..

وفى سرعة ، قفز الشاب إلى مقعد القيادة ، وأدار محرّك السيارة ، ثم انطلق بها إلى ما خلف التبة .

وفى دهشة التفت الإسرائيليون الأربعة إلى السيارة ، وانطلقت فى أعماقهم حيرة بلا حدود ، وهم يتساءلون عن السبب ، الذى حدا بزميلهم إلى اللحاق بهم خلف التبة ..

وبهر الضوء عيونهم لحظات محدودة ..

وحسمه الشاب بلكمة أخيرة ، حطمّت أنف الإسرائيلى ، وأطاحت به من السيارة إلى رمال الصحراء فاقد الوعى ..

كانت كل ما يحتاج إليه الشاب ..

فبكل سرعته ، مال نحو أحد الإسرائيليين الأربعة ، وصدمه فى عنف ، فاطاح به بعيدًا ، قبل أن ينحرف بزاوية حادة ، وينقض على الثانى .

وفى نفس اللحظة التى طار فيها جسد الإسرائيلى الثانى ، بتأثير الصدمة القوية ، تراجع الجنديان الباقيان ، وشهر كل منهما مدفعه فى مواجهة السيارة ، وأحدهما يصرخ :

اللعنة !!.. إنها خدعة .

ولم يكد يتمّ صيحته ، حتى انطلق خنجر ماض فى الهواء ، وانغرس فى قلبه مباشرة ، فشهق فى مزيج من الألم والذهول ، قبل أن يسقط جثة هامدة ، فوق رمال (سيناء) .

أما الرابع ، فقبل أن تنطلق من مدفعه رصاصة واحدة ، فوجئ ببندقية القناص تندفع نحوه ، فانحنى ليتفاداها ، إلا أن أحد مقاعد السيارة انقضّ عليه ، فى اللحظة نفسها ، وأصاب رأسه مباشرة ، فهوى فاقد الوعى ..

وهنا فقط ، أوقف الشاب السيارة ، وقفز منها فى نشاط ، وراح يفحص الاسرائيليين الأربعة ، ثم انتقى أقربهم إلى حجمه ، ونزع عته ثيابه ، وارتداها فى سرعة ، ثم عاد إلى السيارة ، والتقط منها خريطة كبيرة لصحراء (سيناء) ، أخذ يطالعها على ضوء مصباحى السيارة ، قبل أن يشير بسبّابته إلى موقعه الحالى ، مغمغمًا :

ـ إذن فأقرب نقطة إلى هنا هى ممر (متلا) .. الأمر ليس سهلاً بالتأكيد .

وصمت لحظات ليدرس موقفه الصعب ، قبل أن يهزّ رأسه ، ويدير محرك السيارة ، قائلا :

ـ لا بأس .. اسع ياعبد ، وسيعينك الله (سبحانه وتعالى) على بلوغ مأربك .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى ارتفع صوت (بن عازر) ، عبر جهاز اللاسلكى ، وهو يقول :

ـ من القيادة إلى السيارة (بيت) .. حدد موقعك الآن ، وكلمة السر .

انعقد حاجبا (فاى) فى شدة ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فتكرّر النداء بصوت النقيب الأجش الغليظ :

ـ موقعك وكلمة السر يا (بيت) .

كان من الحماقة أن يمسّ الشاب جهاز الاتصال ، وهو يجهل كلمة السر المطلوبة ، فدفع عصا السرعة فى حزم ، وانطلق بالسيارة ، وصوت (بن عازر) يصرخ عبر جهاز الاتصال :

ـ اللعنة !.. اذكر موقعك وكلمة السر يا (بيت) .

ومرة أخرى تجاهله الشاب ، وهو ينطلق بالسيارة ، فوق رمال (سيناء) ، وقد أدرك جيدًا أنه ، على الرغم من محاولته الناجحة ، قد انكشف أمره .

وأن المطاردة قد بدأت ..

وبعنف ..

* * *

ألقى (بن عازر) بوق جهاز الاتصال اللاسلكى فى عنف ، وهو يهتف فى حنق :

ـ اللعنة !.. ماذا أصاب هؤلاء الأغبياء ؟!.. هل فقدوا حاسة السمع ؟

أجابه (زايون) فى عصبية :

ـ بل ربما يكونون قد فقدوا ما هو أكثر أهمية !

التفت إليه (بن عازر) فى حدة ، قائلا :

ـ هل تعنى أن ...

قاطعه (زايون) فى انفعال :

ـ لا يوجد تفسير آخر يا رجل .. ذلك الجاسوس هزم رجالك ، واستولى على سيارتهم ، وربما كان يستخدمها الآن بالتحديد ، فى محاولة للفرار من هنا .

انعقد حاجبا (بن عازر) فى شدة ، وهو يهتف :

ـ اللعنة .

ثم التقط بوق جهاز الاتصال مرة أخرى ، وهتف :

ـ من السيارة (ألف) إلى (جيمل) .. كل المواقع تتحرك إلى الموضع (بيت) .. الجاسوس يحاول الفرار هناك .

هتف به (زايون) فى حدة :

ـ ماذا فعلت أيها التعس ؟!.. لو أن الجاسوس استولى على السيارة (بيت) بالفعل ، فهو يستقبل رسالتك اللاسلكية الآن ، وسيدرك ما تسعون إليه جيدًا .

أجابه (بن عازر) فى فظاظة :

ـ أنت على حق يا رجل (الموساد) .

وعاد يلتقط بوق جهاز الاتصال ، قائلا :

ـ يتم فورًا استبدال الموجة الحالية (س) ، بموجة الاتصالات الاحتياطية (س + ٨) .

وأبعد البوق عن فمه ، وهو يدير مؤشر الجهاز ، قائلا لـ (زايون) :

ـ ما دام يجهل ما نعنيه بالموجة (س + ٨) ، فلن يمكنه متابعة رسائلنا قط .

واطمأن إلى تعديل الموجة ، قبل أن يقول للسيارة (جيمل) (*) في حزم ، وهو يفرد أمامه خريطة كبيرة لصحراء (سيناء) :

ـ الطريق الوحيد المحتمل ، بالنسبة لهذا الجاسوس ، هو أن يدور حول (جبل حيطان) ، في محاولة للحاق بالقوات المصرية ، عند البحيرات المرة ، ولابد لنا من قطع الطريق عليه ، قبل أن ينجح في هذا .

قال (زايون) في اهتمام :

ـ دعهم يتجهو غربًا ، وسنلتقى بهم عند سفح الجبل .

نقل (بن عازر) الأمر لجنوده ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، قبل أن ينهى الاتصال ، قائلاً في صرامة :

(*) جيمل : حرف الجيم في اللغة العربية ، التى ترتب حروفها طبقًا لمنهج الحروف العربية القديمة (أبجد هوّز) ، بحيث تبدأ بألف .. بيت .. جيمل .. دالت .. هى .. فاف .. زاين .. إلخ ..

ـ لو أن هذا المصرى نجح بالفعل فى الاستيلاء على سيارتنا (بيت) ، فأقسم بعظام آبائى وأجدادى أن يدفع الثمن غاليا .. غاليًا بحق .

عقد (زايون) حاجبيه ، وهو يقول :

ـ المهم أن نعثر عليه أولا :

أجابه (بن عازر) فى غضب :

ـ سنفعل .

انطلقت بهم السيارة ، عبر رمال الصحراء ، وعيونهم تدور فى كل مكان ، بحثًا عن الشاب ، ومدافعهم الآلية متحفزة للقائه فى توتر وغضب ..

ومضت نصف ساعة كاملة ، والسيارة تعبر بحر الرمال ، قبل أن يغمغم (زايون) فى توتر :

ـ عجبًا !.. لا يوجد له أدنى أثر .

ثم هتف فجأة :

ـ توقّفوا .

أوقف السائق السيارة على نحو غريزى ، فأثارت حولها عاصفة من الرمال ، جعلت (بن عازر) يسعل فى شدة ، وهو يقول فى حنق :

ـ لماذا التوقّف الآن ؟

عقد (زايون) حاجبيه ، وهو يتلفت حوله ، قائلاً :

ـ لا يوجد أدنى أثر له ، وضوء مصباحى سيارته لا يظهر على مدى البصر ، فى كل الاتجاهات ، ومن المستحيل أن ينطلق بلا

أضواء ، فى هذا الظلام شبه الدامس .

قال (بن عازر) متوترا :

ـ هل تعنى أننا أخطأنا تحديد مساره ؟!

صمت (زايون) لحظات ، وهو يدير عينيه فيما حوله ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ بل أكاد أكون واثقا من هذا .

هزّ (بن عازر) رأسه فى حيرة ، قائلا :

ـ ولكن هذا هو السبيل الوحيد أمامه ، وإلا فسيكون عليه أن يدور حول الجانب الآخر للجبل ، وهذا يحتاج منه إلى ست ساعات كاملة ، يكون خلالها معرّضًا لشتى أنواع الخطر ، ولفترة أطول مما ينبغى ، ولست أظنه من الحماقة ، بحيث يقدم على هذا .

رفع (زايون) أحد حاجبيه ، وهو يقول :

ـ الحماقه ؟!.. آخر ما يمكن أن يتصف به رجل كهذا هو الحماقة .. من الواضح أنه ثعلب خبيث ، وإلا ما نجح فى اقتحام الطائرة فى الجو ، وهزيمة ثلاثة من أفضل محترفينا ، فى هذا المجال .

وصمت لحظة أخرى ، قبل أن يستطرد :

ـ لذا فمن المحتمل جدًا أنه اتخذ طريقًا آخر .

التقى حاجبا (بن عازر) ، وهو يستعيد خريطة (سيناء) ، قائلا :

ـ لا يوجد طريق آخر ، سوى ذلك الذى يقود إلى ممر (متلا) .

ثم هزّ رأسه فى قوة ، متابعا فى حسم :

ـ ولكن هذا مستحيل !.. لا يمكنه أن يجازف إلى هذا الحد .. لو أنه محترف بحق ، فسيدرك حتمًا أن الممر محاط بحراسة مشدّدة ، كواحد من النقاط الرئيسية فى استراتيجية (*) الدفاع عن (سيناء) ، ومجرّد الاقتراب منه ، دون تصريح رسمى ، يعدّ مخاطرة غير محسوبة .

قال (زايون) ، وهو يفكر فى عمق :

ـ ولكن الممر هو أقصر طريق يقطعه ، لبلوغ القوات المصرية ، ولو أنه محترف بحق ، فسيدرك أن أحدًا لن يتوقع له أن يتخذ هذا الطريق المستقيم .

قال (بن عازر) معترضًا :

ـ اختلف معك كثيرًا فى هذا يا سيادة العقيد .. المحترف لا يلقى نفسه فى التهلكة بهذه البساطة .

التفت إليه (زايون) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ صه يا رجل .. أنت لا تفقه شيئًا فى أساليب المحترفين الحقيقية .

وأشار بيده إلى سائق السيارة ، وهو يلتقط بوق اللاسلكى ، مستطردًا :

(*) الاستراتيجية : فن القيادة فى الحرب الشاملة على مستوى الدولة ، حيث يتم تنسيق الخطط العسكرية مع الخطط الاقتصادية ، والإعلامية ، والسياسية ، وتهدف إلى تحقيق هدف قومى ، وتوصف بأنها الخطة العامة ، لحملة عسكرية كاملة .

ـ نداء إلى الجميع .. سننطلق مباشرة إلى ممر (متلا) .

قالها ، دون أن يدرى أنه أصاب هدفه بمنتهى الدقة هذه المرة ..

وأن القدر قد اختار للمواجهة تلك البقعة بالتحديد ..

الطريق إلى ممر (متلا) ..

ذلك الممر الاستراتيجى .

المميت ..

* * *

٤ ـ الطريق إلى الممر ..

تطلّع (نسيم) فى إمعان إلى خريطة كبيرة لصحراء (سيناء) ، وهو يحك ذقنه بسبّابته وإبهامه ، كعادته كلما استغرق فى تفكير عميق ، قبل أن يلتفت إلى زميله (محسن) ، قائلا :

ـ باعتبارك خبيرا بصحراء (سيناء) ودروبها ، هل يمكنك أن تستنتج خط السير ، الذى يمكن أن يتبعه رجلنا ، للخروج من هذا المأزق ، لو أنه ظفر بوسيلة انتقال مناسبة ؟!

جال (محسن) ببصره فى الخريطة ، قبل أن يشير إليها ، قائلا :

ـ ليس أمامه سوى أن يدور حول الجانب الشمالى لجبل (حيطان) ، ليلتقى بقواتنا المتمركزة عند البحيرات المرة .

مطّ (نسيم) شفتيه ، قائلا :

ـ نعم هذا ما يبدو واضحًا من النظرة الأولى .

وتطلّع إلى الخريطة مرة أخرى ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ لذا فلن يتخذ هذا المسار قط .

هزّ (محسن) راسه ، قائلا :

ـ ليس أمامه سواه ، وإلا فسيضطر لعبور ممر (متلا) ، بكل ما يمثّله هذا من خطورة بالغة .

صمت (نسيم) لحظات ، وهو يطالع الخريطة للمرة العاشرة ، فى تلك الليلة ، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة هادئة ، ولسانه يقول :

ـ سيتجه إلى الممر إذن .

تطلع إليه (محسن) فى دهشة ، قبل أن يقول :

ـ ما الذى يجعلك واثقا من أنه سيقدم على مثل هذه الخطوة الجنونية ؟

أجابه (نسيم) فى سرعة :

ـ لأننى كنت سأتخذ هذا المسار حتما ، لو أننى فى موضعه .

ثم استعاد ابتسامته ، مستطردا :

ـ ولا تنس أننى الشخص الذى يدربه ، ويلقنه كل ما يعرفه ، فى عالم المخابرات .

جلس (محسن) على مقعد وثير ، وهو يقول :

ـ لاحظ أن العملية التى يقوم بها الشاب ليست عملية مخابرات بالدرجة الأولى ، بل هى أشبه بالعمليات الانتحارية ، التى يقوم بها رجال القوات الخاصة .

قال (نسيم) فى حزم :

ولكنه يقوم بها لحساب المخابرات العامة يا رجل ، وهذا هو المهم .

ثم انعقد حاجباه ، وهو يستطرد متوترا :

ـ الشىء الذى يثير قلقى بشدة ، هو لماذا لم يتصل بنا ، منذ هبوطه فى (سيناء) ؟

صمت (محسن) لحظة ، قبل أن يجيب :

ـ هناك تفسيرات عديدة لهذا يا صديقى ، وأبسطها أنه ..

بتر عبارته بغتة ، فأكملها (نسيم) فى ضيق :

ـ أنه لقى مصرعه هناك .. أليس كذلك ؟

أومأ (محسن) برأسه إيجابا ، فتنهد (نسيم) فى عمق ، قبل أن يقول :

ـ ربما يبدو ما سأقوله لك سخيفا ، ويتنافى تماما مع طبيعة عمل المخابرات ، إلا أن لدى شعورا قويًا بأن هذا لم يحدث .

غمغم (محسن) فى دهشة :

ـ مجرد شعور ؟!

أومأ (نسيم) برأسه إيجابا ، وقال :

ـ نعم يا (محسن) .. مجرد شعور ، ولكنه من القوة ، بحيث يبدو لى أشبه بقرينة قوية ، تحتاج إلى ما يؤيدها .

سأله (محسن) فى اهتمام :

ـ مثل ماذا ؟

صمت (نسيم) ، وهو يتطلع إلى الخريطة مرة أخرى ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ مثل الاقتراب من موقع المعركة .

قالها ، والتقط سماعة هاتفه ، وأدار قرصه بسرعة ، ولم يكد يسمع صوت محدثه ، حتى قال فى لهجة آمرة :

ـ أريد طائرة هليوكوبتر صغيرة ، من ذلك الطراز الذى كانوا يستخدمونه فى حرب الاستنزاف .. الوجهة ؟!.. نعم .. سأخبرك عن وجهتها .

وشد قامته ، وهو يضيف فى حزم :

ـ (سيناء) .. قلب (سيناء) .

وأنهى المحادثة ، دون أن يضيف حرفا واحدا ..

* * *

انطلق (فاى) بالسيارة (اللاند ـ روفر) فى حزم ، متجها إلى ممر (متلا) مباشرة ، وعقله يدرس الأمر مرات ومرات بلا توقف ..

إنه واثق من أن التحليل الطبيعى للموقف ، سيدفع خصومه إلى تصور أنه سيتخذ حتما الطريق السهل ، الذى يدور حول جبل (حيطان) ، للحاق بالقوات المصرية عند البحيرات المرة ..

ولقد تلقى تدريباته بحيث يختار دائما أبعد الحلول إلى المنطق الطبيعى ..

فهذا وحده يربك العدو ..

ولهذا اتجه نحو ممر (متلا) مباشرة ..

آخر اتجاه يمكن أن يخطر ببال شخص فى مثل موقفه ..

ومن الطبيعى أن اختراق ممر استراتيجى ، مثل ممر (متلا) ، مغامرة غير مأمونة العواقب أبدًا ، فهناك كتيبة كاملة من القوات الخاصة الإسرائيلية تحرس الممر ، بالإضافة إلى مدفع مضاد للطائرات ، وعدد من صواريخ الدفاع الجوى ..

والاقتراب .. مجرد الاقتراب من الممر ، يشبه إلقاء المرء نفسه فى فوهة بركان ثائر(*) تتناثر منه الحمم فى كل صوب ، لتلتهم الأخضر واليابس ..

(*) البركان : فتحة فى قشرة الأرض ، تتصاعد منها الغازات ، وتقذف الصخور (مصهورة وصلبة) ، وغالبًا ما يكون على هيئة جبل مخروطى الشكل ، يتكون من المواد المقذوفة تحت القشرة ، وتنشأ قوى البركان الانفجارية من تراكم الأبخرة والغازات ، فى حالة فوق التسخين ، واحتجازها خلف سدادة من الحمم المتصلبة ، فى قصبة البركان .

ولكن هذا لن يدفعه للتراجع قط ..

سيجد حتما وسيلة لعبور الممر ..

أية وسيلة ..

توقفت أفكاره بغتة ، مع ذلك الضوء المزدوج ، الذى لاح له فجأة ، فى المرآة الجانبية للسيارة ..

وأدرك الشاب طبيعة ذلك الضوء المزدوج على الفور ..

كان مصباحى سيارة (لاند روفر) أخرى ، تطارده فى إصرار ..

وانعقد حاجبا الشاب فى حزم ..

إذن فقد كشفوا لعبته ..

أدركوا أنه اتخذ أكثر المسارات صعوبة وخطورة ..

وهذا يعنى أنه لا يواجه قوة غاشمة فحسب ..

بل يواجه عقلاً ذكيًا ، يموج بالخبث والدهاء ..

وفى البداية ، زاد الشاب من سرعة السيارة ، فى محاولة للإفلات من المطاردة ، ثم لم يلبث أن أدرك أن هذا غير مجد على الإطلاق .

لقد كشفوا مساره ، ولن يعجزوا عن دفع كتيبة كاملة للتصدى له ، وقطع طريقه إلى الممر ..

ومرة أخرى ، اعترف بأنه ليس أمامه سوى مبدأ (نابليون) ..

الهجوم ..

وفى حزم ، أدار عجلة القيادة دورة حادة ، دارت لها السيارة

توقفت أفكاره بغتة ، مع ذلك الضوء المزدوج ، الذى لاح له فجأة ، فى المرآة الجانبية للسيارة ..

حول نفسها فى سرعة ، مثيرة عاصفة من الرمال ، وكادت تنقلب على جانبها ، لولا سيطرته التامة على عجلة القيادة ، على نحو ساعد السيارة على استعادة توازنها ، قبل أن ينطلق بها نحو السيارة المطاردة مباشرة ..

وفى سرعة ، انتزع حزام المقعد ، وربط به عجلة القيادة فى قوة ، ليثبتها فى موضعها ، ثم حمل صندوق ذخيرة ثقيلا ، من المقعد الخلفى ، ووضعه فوق دوّاسة الوقود ، قبل أن ينتزع فتيل ثلاثة قنابل يدوية ، ويلقيها فى قاع السيارة ، وهو يواصل الانطلاق بها نحو السيارة الأخرى ، التى هتف سائقها فى ذعر :

ـ ماذا يفعل هذا المجنون ؟!.. إنه ينطلق نحونا مباشرة .

أجابه أحد الرجال فى حزم :

ـ لا تجعل هذا يربكك .. إنه يقصد هذا .. لن يمكنه الانطلاق نحونا حتى النهاية ، حافظ على خط سيرك ، وسيضطر هو للانحراف .

قال رجل آخر فى سخرية :

ـ هذا لو بقى على قيد الحياة .

قالها ، وصوّب مدفعه الآلى إلى سيارة (فاى) ..

وانطلقت رصاصاته ورصاصات رفاقه نحوها كالمطر ..

وخفض الشاب رأسه فى سرعة ، وأضاء المصباحين القويين للسيارة ، وهو يواصل انطلاقه بها نحو سيارة الإسرائيليين لثوان إضافية ، قبل أن يقفز منها ، ويتدحرج جسده على الرمال ، مبتعدا عن مسارها ..

ولأن ضوء المصباحين الكبيرين كان يبهر أبصار الإسرائيليين ، لم ينتبهوا إلى أنه تخلّى عن السيارة ، وواصلوا إطلاق نيرانهم عليها ، قبل أن يصرخ سائقها :

ـ إنه لم ينحرف .

وأدار عجلة قيادة سيارته فى سرعة ، فى محاولة لتفادى الارتطام ، إلا أن سيارة (فاى) ارتطمت بمؤخرة سيارته ، و ..

وانفجرت القنابل اليدوية الثلاث ..

ومع انفجارها ، اشتعل صندوق الذخيرة ، الذى يضغط على دوّاسة الوقود ..

ودوى انفجار هائل ..

انفجار أطاح بالسيارتين معًا ، وبالإسرائيليين الخمسة ، وأضاء المنطقة كلها لثانيتين أو يزيد ، مع ألسنة اللهب ، التى تصاعدت لارتفاع خمسة أمتار ..

ومن بعيد ، صرخ (بن عازر) فى غضب :

ـ اللعنة !.. هذا الانفجار أقوى من أن تحدثه سيارة واحدة ، يركبها رجل واحد ..

وانعقد حاجبا (زايون) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ أخشى أن الجاسوس ظفر بسيارتك الثانية وركابها يا رجل .

صاح (بن عازر) :

ـ اللعنة !.. اللعنة ..!

ثم لكز سائق السيارة فى كتفه ، مستطردًا فى ثورة :

ـ انطلق إلى حيث وقع الانفجار يا رجل .. لن نسمح لذلك

الجاسوس بإهانتنا على هذا النحو .

انطلق السائق بأقصى سرعته ، نحو موقع الانفجار ، و (زايون) يغمغم فى توتر :

ـ ذلك الجاسوس ليس سهلا .. ليس كذلك أبدًا .

قال (بن عازر) فى غضب :

ـ سنظفر به يا سيادة العقيد .. أعدك أننا سنفعل .

رمقه (زايون) فى شك ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ الأمر أخطر من أن نخضعه للعواطف والوعود أيها النقيب .

لاحت لهما السيارتان المشتعلتان ، فى تلك اللحظة ، وحولهما جثث الجنود ، فهتف (بن عازر) فى حنق :

ـ لقد ظفر برجالنا .. لن نسمح له بالإفلات بفعلته هذه أبدًا .

وضع (زايون) يده على كتفه فى قوة ، قائلاً :

ـ ولكنه ضحى بسيارته ، لينسف سيارة الرجال ، وهذا يعنى أنه لم يذهب بعيدًا .

انعقد حاجبا (بن عازر) فى قوة ، وهو يقول :

ـ هذا صحيح .

ثم أشار إلى نقطة بعيدة ، مستطردًا فى حزم :

ـ ها هوذا .

استدار (زايون) فى سرعة ، إلى حيث يشير (بن عازر) ، وانعقد حاجباه فى شدة ، عندما وقع بصره على ذلك الجسم ، الذى يتحرّك فى حذر فوق الرمال ، والذى بدا فى وضوح ، على الضوء المتراقص لألسنة اللهب ، وقال فى انفعال :

ـ نعم .. إنه هو .. دعونا ننطلق نحوه ، و ..

قاطعه (بن عازر) فى حزم :

ـ لا داعى لهذا .. من هذه المسافة، يمكننا استخدام وسيلة أفضل .

ثم لمس كتف القنّاص المصاحب له ، قائلا :

ـ عليك به .

أومأ القنّاص برأسه إيجابا ، ورفع بندقيته إلى كتفه ، وألصق عينيه بمنظارها المجهّز للرؤية الليلية ، و (زايون) يسأله فى لهفة :

ـ إنه هو .. أليس كذلك ؟!

أجابه القنّاص فى حسم :

ـ بلى .. إنه هو .

وصوّب بندقيته فى إحكام ، وانعقد حاجباه ، وهو يتمتم :

ـ ولكنه ..

لم يتمّ عبارته ، ودوى الرصاصة يملأ المكان ، وهى تشقّ طريقها عبر الصحراء ، وتستقر فى رأس الهدف ..

وبمنتهى الدقة ..

* * *

انطلقت الهليوكبتر الحربية الصغيرة ، تشق طريقها عبر سماء (مصر) ، فى طريقها إلى الشرق ، وقائدها يقول لراكبها الوحيد فى اهتمام :

ـ الأوامر التى تلقيتها تحتم على طاعتك دون مناقشة ، ولكن اسمح لى بسؤال واحد : إلى أين نتجه بالضبط ؟

أجابه (نسيم) فى اقتضاب :

ـ إلى (سيناء) .

سأله الطيّار :

ـ أى جزء منها بالتحديد ؟

رمقه (نسيم) بنظرة جانبية ، وهو يقول فى صرامة :

ـ قلت سؤالا واحدا ؟

انعقد حاجبا الطيّار ، وهو يقول :

ـ هذا جزء من السؤال .

صمت (نسيم) لحظة ، ثم سأله بغتة :

ـ كنت أحد الطيارين الذين اشتركو فى حرب الاستنزاف .. أليس كذلك ؟

أجابه الطيّار فى ضيق :

ـ بلى .. أهذه وسيلة للتهرُّب من إجابة سؤالى ؟

تجاهل (نسيم) عبارته ، وهو يسأله ثانية :

ـ كم مرة شاركت فى حرب الاستنزاف ؟

زفر الطيّار فى ضيق ، قبل أن يجيب .

ـ خمس عشرة مرة .

سأله (نسيم) :

ـ وماذا كنت تفعل فى كل مرة ؟!

أجابه الطيّار ، وقد بدأ الحذر يتسلل إلى نفسه :

ـ كنا نعبر خطوط العدو ، وننزل الرجال خلف تحصيناته ، ثم نعود لالتقاطهم ، بعد أن يفرغوا من مهمتهم .

قال (نسيم) فى حزم :

ـ هذا بالضبط ما ستفعله الليلة .

ارتفع حاجبا الطيّار فى دهشة ، وهو يقول :

ـ هل تعنى أنك ..

قاطعه (نسيم) بسرعة :

ـ كلاّ .. إننا سنلتقط أحد رجالنا من هناك .

سأله الطيّار فى اهتمام ، وقد استعاد حماس المعارك :

ـ ما الذى تعنيه كلمة (هناك) هذه .

صمت (نسيم) لحظة ، قبل أن يجيب فى حسم :

ـ خلف ممر (متلا) .

التقى حاجبا الطيّار فى عزم ، وهو يقول :

ـ تمامًا مثل الأيام الخوالى .

قالها ، والهليوكوبتر تعبر بهما قناة (السويس) ، فى طريقها إلى (سيناء) ، فاعتدل (نسيم) ، وقال :

ـ أعتقد أن المسافة تسمح لنا بإجراء الاتصال مع رجلنا .. أليس كذلك ؟

أجابه الطيّار :

ـ بالتأكيد .. لو أنه فى دائرة نصف قطرها مائة كيلو متر .

ضغط (نسيم) زر جهاز الاتصال اللاسلكى ، وهو يقول :

ـ لو أنه يذكر كل ما لقنته إياه ، فسيكون الآن فى ذلك النطاق بإذن الله .

وضبط موجة الاتصال الخاصة ، بينه وبين (فاى) ، قبل أن يقول :

ـ من العش إلى النسر .. أجب ..

وانتظر لحظة صامتة ، ثم كرر فى شىء من القلق :

ـ من العش إلى النسر .. أجب .. الأمر هام للغاية .

ولكن جهاز الاتصال اللاسلكى ظل على صمته ، وكأنما يعلن أن النسر لم يعد قادرًا على إجابة الرسالة ..

وليس لهذا سوى تفسير واحد من اثنين ..

إما أنه فقد جهاز الاتصال الخاص به ، أو ..

أو أنه فقد ما هو أكثر خطورة ..

حياته نفسها .

* * *

٥ ـ القنّاص ..

صوّب القنّاص بندقيته المزوّدة بجهاز الرؤية الليلية فى إحكام ، نحو (فاى) ، الذى يرقد على رمال (سيناء) ، وسأله (زايون) فى لهفة :

ـ إنه هو .. أليس كذلك ؟

أجابه القنّاص فى حسم :

ـ بلى .. إنه هو ..

ثم انعقد حاجباه فى دهشة وتوتر ، وهو ينظر عبر منظاره إلى (فاى) ، الذى يصوّب إليه بندقية مماثلة ، وتمتم :

ـ ولكنه ..

قبل أن يتمّ عبارته ، ضغط (فاى) زناد البندقية ، التى حصل عليها من القنّاص الأوّل .

وسبق القنّاص الآخر بثانية واحدة ..

وكان لهذه الثانية أثر هائل فى مجرى الأحداث ..

لقد انطلقت رصاصته ، وشقّت طريقها عبر الصحراء ، لتستقر فى رأس القنّاص ..

وبمنتهى الدقة ..

وأطلق الإسرائيلى صرخة عنيفة ، تجمع بين الألم والذهول ، قبل أن يرتدّ فى عنف ، ويسقط جثة هامدة ، بين (زايون) و (بن عازر) ..

واتسعت عيون الإثنين فى ذهول ، وهما يحدّقان فى جثة

القنّاص ، قبل أن يصرخ (زايون) :

ـ غادروا السيارة .. إنه يحمل بندقية قنص مماثلة .

قالها وقفز خارج السيارة ، وتبعه (بن عازر) وأحد الجنديين ، أما الجندى المتبقى ، فقد اخترقت رصاصة (فاى) الثانية عنقه ، وأسقطته صريعًا ، قبل أن يغادر السيارة بدوره ..

وفى عصبية شديدة ، هتف (بن عازر) ، وهو يختبئ مع (زايون) والجندى الآخر خلف السيارة :

ـ من أين حصل على تلك البندقية ؟!

أجابه (زايون) فى حنق :

ـ لا ريب فى أنه حصل عليها من القنّاص الأوّل ، عندما هاجم السيارة (بيت) .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى دوت رصاصة أخرى ، وسمع ثلاثتهم صوتها ، وهى ترتطم بجسم السيارة ، فقال (بن عازر) محنقًا :

ـ إنه يسرف فى إطلاق رصاصاته .

انعقد حاجبا (زايون) وهو يقول :

ـ هذا يُدهشنى فى الواقع ، فمع بندقية كهذه ، وشخص يجيد التصويب مثله ، من الحماقة أن يهدر المرء رصاصاته بلا طائل .

سمع الثلاثة دوى رصاصة جديدة ، ارتطمت بجسم السيارة بدورها ، وهتف (بن عازر) فى سخط :

ـ ولكن ها هوذا يرتكب تلك الحماقة .

ازداد انعقاد حاجبى (زايون) ، وهو يغمغم :

ـ حماقة ؟! .. ولكن ماذا لو أنه ..

بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه فى ارتياع ، مع دوى الرصاصة الثالثة ، وصرخ ، وهو يندفع مبتعدا :

ـ يا للشيطان !.. خزان الوقود .

اتسعت عينا (بن عازر) ، وهو يقول :

ـ خزان ماذا ؟!

ومع آخر حروف كلماته ، دوى الانفجار ..

لقد أصابت رصاصات (فاى) هدفها بمنتهى الدقة ، واخترقت خزان وقود السيارة ، وأشعلت فيه النيران ، فانفجر بدوى هائل ، قذف السيارة قرابة المترين فى الهواء ، وأطاح بالنقيب (بن عازر) والجندى لثلاثة أمتار ، قبل أن ترتطم السيارة بالأرض مرة أخرى ، وتنقلب فى عنف ، وتشتعل فيها النيران ..

أما (زايون) ، فقد لحقت به الموجة التضاغطية ، التى نشأت مع الانفجار ، ودفعته أمامها لمترين كاملين ، قبل أن يسقط على الرمال ، وهو يهتف فى غضب لا مثيل له :

ـ اللعنة !.. اللعنة !

نهض فى حنق ، وأسرع نحو (بن عازر) ، الذى تلوث صدره كله بالدماء ، واحترق جزء كبير من شعره المجعد ، وجانب وجهه ، وذراعيه ، وهو يسعل فى عنف ، مغمغما :

ـ لقد فعلها .. فعلها ذلك المصرى ..

ألقى (زايون) نظرة سريعة على الجندى ، ولم يكن بحاجة إلى التمعن ، ليدرك أنه لقى مصرعه مع الانفجار ، فقد اخترقت شظية كبيرة جمجمته ، وغاصت فيها على نحو بشع ، لتغمر وجهه كله بالدم ..

لقد أصابت رصاصات (فاى) هدفها بمنتهى الدقة ، واخترقت خزان وقود السيارة ، وأشعلت فيه النيران ..

وفى سخط ، هتف (زايون) :

ـ لن نسمح لهذا المصرى بهزيمتنا على أرضنا قط .

سعل (بن عازر) مرة أخرى ، وتناثرت الدماء من بين شفتيه ، وهو يقول فى ألم ومرارة :

ولكنه هزمنا بالفعل أيها العقيد .. لقد حطمّ سياراتنا الثلاث ، وقضى علىعشرة جنود ، وثلاثة من أفضل قناصينا .. ماذا تريد أكثر من هذا ، لتعترف بالهزيمة .

صاح (زايون) فى غضب :

ـ إنه لم ينتصر بعد .

وانتزع جهاز اللاسلكى الخاص به من حزامه ، وهو يستطرد :

ـ ما دام على أرضنا ، فما زالت الهزيمة من نصيبه ، مهما فعل .

وهتف عبر الجهاز :

ـ أريد طائرة هليوكوبتر على الفور .. نعم .. طائرة مزوّدة بمدفع آلى وصاروخين .. كلمة السر (فجر) ، والكود السرى (٧٧٧) ، وسأحدّد لك موقعنا بالتحديد .

سعل (بن عازر) مرة أخرى ، وتدفّق الدم من بين شفتيه غزيرًا هذه المرة ، وهو يقول :

ـ أتعتقد أن هذا سيفلح ؟

أجابه (زايون) فى حزم :

ـ ستكون مواجهة بين رجل واحد وهليوكوبتر حربية .. ما نتيجة مثل هذا الصراع فى رأيك ؟!

هزّ (بن عازر) رأسه ، مغمغمًا :

ـ مع شخص مثله ، لا يمكنك التنبوء .

لم يرق الجواب لرجل المخابرات الإسرائيلى ، فانعقد حاجباه فى حنق ، فى حين التفت (بن عازر) إلى الأفق ، الذى بدأ يتلوّن بأضواء الفجر الأول ، وتمتم :

ـ هل تعلم يا صاح ؟.. منذ خرجنا لمطاردة ذلك المصرى ، كان لدى شعور بأننى لن أرى الشمس تشرق ثانية .

قال (زايون) فى توتر :

ـ من يدرى ؟.. ربما رأيت شروق عشرات الشموس ..

ضحك (بن عازر) فى ألم ، وقال :

ـ أأنت تقول هذا ؟!.. إنك لم تحاول حتى الاتصال بالكتيبة الطبية .

قالها وأطلق ضحكة أخيرة ، تناثرت معها قطرات الدم ، وفاضت بعدها روحه ، فسقط رأسه أرضًا ، وفقدت عيناه بريق الحياة ، فعضّ (زايون) شفتيه فى غضب ، وهو يغمغم :

ـ ستدفع الثمن أيها المصرى .. ستدفع الثمن غاليًا .

ونهض فى حذر ، يتطلّع إلى حيث كان يرقد (فاى) ، إلا أنه وجد المكان خاليًا ، إلا من بندقية القنص الفارغة ..

لقد اختفى الشاب .

اختفى تمامًا ..

* * *

لم يعد (فاى) يمتلك أية وسيلة انتقال ..

لقد صار وحيدًا أعزل ، فى قلب (سيناء) ..

وفى المنطقة الخاضعة لسيطرة العدو ..

ولكن هذا لم يفت من عضده ، أو يحبط همته ..

لقد استغل لحظة انفجار السيارة الأخيرة ، وتخلى عن بندقيته ، وانطلق يعدو مبتعدًا بأقصى سرعة ..

لم يكن يدرى ما الذى حققه الانفجار بالضبط ، ولكنه يدرك جيدًا أن لكل دقيقة ثمنها ، فى مثل هذه الظروف ، وأنه لم يعد أمامه سوى أن يعدو بكل قوته ..

وفى حزم ، انتزع جهاز اللاسلكى الخاص به ، وهتف عبره :

ـ من النسر إلى العش .. من النسر إلى العش .

أتاه صوت (نسيم) ، عبر الجهاز ، وهو يهتف :

ـ أين أنت أيها النسر ؟!.. لقد حاولنا الاتصال بك ، ولكننا لم نتلق أية استجابة .

أجابه الشاب ، وهو يعدو فوق الرمال :

ـ لقد استقبلت الاتصال بالفعل ، ولكن لحظة استقباله كانت بالغة الحساسية ، ولم يكن أمامى سوى التركيز على العمل بشدة .

سأله (نسيم) فى لهفة :

ـ إلى أى حد بلغت مهمتك أيها النسر ؟

أجاب الشاب فى حزم :

ـ الرسالة بحوزتى ، وما زالت الغربان تطاردنى فى إصرار ، فى محاولة لاستعادتها .

ران الصمت لحظة ، وكأنما يجاهد (نسيم) للسيطرة على انفعاله ، قبل أن يسأله :

ـ ما موقعك بالتحديد أيها النسر ؟!.. استخدم شفرة الخرائط رقم (سبعة) .

راجع الشاب كل ما تعلّمه فى هذا الشأن ، قبل أن يجيب :

ـ فى الموقع (٧ ج ل) ، وأتجه نحو الموقع (١٠١٠ م م) .

مضت لحظة أخرى من الصمت ، قبل أن يقول (نسيم) :

ـ كنت واثقًا من هذا .

ثم سأله فى حماس :

ـ ما مدى تسليحك بالضبط ؟

صمت الشاب هذه المرة ، قبل أن يجيب :

ـ صفر .. أنا أعزل تمامًا ، وبلا وسيلة انتقال ، و ..

قبل أن يتمّ عبارته ، ارتفع من خلفه هدير مروحة الهليوكوبتر الحربية ، وهى تتجه نحوه ..

ودوت رصاصات مدفعها الآلى ..

فى قلب (سيناء) ..

* * *

انتفض قلب (نسيم) فى عنف ، مع دوى الرصاصات ، الذى نقلته موجات اللاسلكى ، قبل أن ينقطع البث فجأة ، فهتف عبر جهاز الاتصال فى انفعال :

ـ ماذا حدث عندك أيها النسر ؟.. ماذا حدث ؟!

لم يتلق أى جواب هذه المرة ، فانعقد حاجباه بشدة ، وهو يغمغم :

ـ ترى هل ..

لم يستطع إتمام عبارته ، فألقى الطيّار عليه نظرة قلقة ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ هل تعتقد أنهم ظفروا به ؟!

صمت (نسيم) لحظة ، قبل أن يتمتم :

ـ كل شىء محتمل . كل شىء ..

سأله الطيّار فى حذر أكثر :

ـ إننا داخل حدود العدو بالفعل ، والطيران المنخفض وحده ، مع تفادى نقاط المراقبة ، يسمح لنا بالتوغّل فى قلب (سيناء) .. هل تعتقد أنه علينا أن نواصل المجازفة ، أم أن الحكمة تقتضى الانسحاب ؟

التفت إليه (نسيم) ، مجيبًا فى صرامة :

ـ انس أمر الانسحاب هذا .

وعاد يتطلّع أمامه ، مستطردًا فى حزم :

ـ لقد انقطع الاتصال لسبب ما ، والوسيلة الوحيدة لمعرفة هذا السبب ، هى الوصول إلى هناك .

أشار الطيّار إلى الأفق ، قائلاً :

ـ لاحظ أن الشمس ستشرق بعد قليل ، والتسلّل فى أرض العدو نهارًا ، يختلف تمام الاختلاف عن التسلل الليلى المعتاد .

التفت إليه (نسيم) ، وقال فى صرامة :

ـ هل تشعر بالخوف ؟

انعقد حاجبا الطيّار ، وهو يجيب فى حزم :

ـ مطلقًا ..

وأطبق شفتيه بعدها ، وواصل انطلاقه فوق صحراء (سيناء) ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فى حين حاول (نسيم) أن يسترخى فى مقعده ، وعقله يتساءل : هل من الممكن أن يجد (فاى) ، إذا ما وصل إليه فى الوقت المناسب ؟!..

هل ؟!..

* * *

لم يكد (زايون) يلمح (فاى) ، وهو يجرى فوق رمال (سيناء) ، حتى هتف بطيّار الهليوكوبتر الحربية الإسرائيلية فى انفعال :

ـ ها هوذا .. انقض عليه ، وأطلق النار على الفور .

وفى لحظة الانقضاض ، انتبه الشاب إلى الموقف ، فانطلق يعدو ..

وانطلقت خلفه رصاصات الهليوكوبتر ..

وشعر الشاب بآلام عنيفة فى ساعده ، الذى احتكّت به رصاصة ، ومزّقت جزءًا من لحمه ، فى حين أصابت رصاصة ثانية جهاز اللاسلكى ، وأطاحت به من يده ، لتنسفه نسفًا ..

وفى ثورة ، صاح (زايون) :

ـ لقد أخطأته يا رجل .. أخطأته .. اترك لى القيادة ، ما دمت تعجز عن إصابة هدفك على هذا النحو .

قال الطيّار فى غضب :

ـ لا تحاول يا سيادة العقيد .. لا أحد يقود طائرتى سواى .

أشار (زايون) إلى (فاى) ، وهو يهتف :

ـ اقض عليه إذن .. هيا .. أثبت براعتك .

دار الطيّار بالهليوكوبتر ، وانقضّ بها مرة أخرى على الشاب ، الذى انطلق يعدو بأقصى سرعته ، فى خط متعرّج للغاية ، والدماء تنزف من إصابة ذراعه ، وتصنع خطًا دمويًا على رمال الصحراء ..

ومرة أخرى ، أطلق الطيّار رصاصاته ..

ولكن الشاب لم يتوقّف ..

لقد خُيّل إليه أن مشاعره كلها قد توقّفت ، ولم يعد أمامه سوى أن يعدو باستمرار ، وبلا توقّف ..

ومن خلفه ، اخترقت رصاصات الهليوكوبتر رمال (سيناء) ، التى تناثرت فى عنف ، والشاب يعدو ، ويعدو ، ويعدو ..

ومرة أخرى ، صرخ (زايون) :

ـ أيها الغبى .. لقد أخطأته .

انعقد حاجبا الطيّار فى غضب ، وهو يقول فى حدة :

ـ ماذا دهاك أيها العقيد ؟!.. إنه مجرّد رجل واحد ، وسنظفر به آن عاجلاً أو آجلاً :

صاح (زايون) :

ـ اظفر به الآن إذن .

هتف الطيّار :

ـ إنه يجيد المراوغة ، ولكنه لن يواصل هذا إلى الأبد .. دعه يعدو فوق رمال الصحراء ، ولن يلبث أن يلهث وتتقطّع أنفاسه ، ولا يعود قادرًا على المضى لمتر إضافى واحد ، وعندئذ سنمطره برصاصاتنا ، وينتهى الأمر .

قال (زايون) فى غضب :

ـ اسمعنى جيدًا أيها الطيّار .. هذا الشخص ليس جاسوسًا عاديًا .. إنه يحمل وثيقة سرية بالغة الخطورة ، ولو نجح فى الخروج بها من هنا ، يمكنك أن تعتبر أننا فشلنا ، وأن أمن (إسرائيل) كلها صار مهدّدًا بالخطر .

أشار الطيّار بيده ، وهو يدور بالهليوكوبتر دورة واسعة ، قائلا :

ـ اطمئن يا سيادة العقيد .. لن يمكنه الخروج من هنا حيًا .

أدار (زايون) رأسه ، ليتابع حركة (فاى) ، والهليوكوبتر تكمل دورتها ، وانعقد حاجباه فى توتر بالغ ، عندما لمحه يخلع حذاءه ، وقال فى عصبية :

ـ لماذا ؟.. لماذا يخلع حذاءه ؟

قال الطيّار فى دهشة :

ـ حذاءه ؟!

ثم انعقد حاجباه ، مستطردًا :

ـ ربما يجد أن العدو على الرمال أكثر سهولة ، بدون حذاء ثقيل .

كانت الهليوكوبتر قد أكملت دورتها ، وعادت تنقضّ على (فاى) ، الذى حمل فردتى الحذاء ، وعاد يعدو مرة أخرى فى خط متعرّج ، فهتف (زايون) :

ـ هيا .. أطلق عليه النار .. هيا .

ضغط الطيّار زر إطلاق النار ، وانطلقت الرصاصات تطارد الشاب ، الذى مال يمينا ويسارًا فى مهارة ، ثم انبطح أرضًا ، وراح يتدحرج فى قوة ، والرمال تتناثر من حوله ..

وأدهشه كثيرا أن مناورته كانت ناجحة إلى هذا الحد ، فلم يصب برصاصة واحدة من الهليوكوبتر ، التى أكملت طريقها ، و (زايون) يصرخ داخلها :

ـ أنت فاشل أيها الطيّار .. فاشل .

صاح به الطيّار فى غضب :

ـ إنك تتجاوز حدودك كثيرا يا رجل (الموساد) .. حتى منصبك لا يمنحك الحق فى إهانتى على هذ النحو .

هتف به (زايون) فى غضب :

ـ بل لى كل الحق أيها الطيّار ، فأنا أفوقك رتبة ، وأجيد قيادة الهليوكوبتر أفضل منك ألف مرة .

انعقد حاجبا الطيّار فى شدة ، وهو يقول :

ـ إذن فأنت تصرّ على هذا ؟

أجابه (زايون) فى صرامة :

ـ تمام الإصرار .

أطلّ الغضب من كل خلية من خلايا الطيّار ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ فليكن .. قد أنت الهليوكوبتر ، وأثبت مهارتك .

قالها ، وتخلّى عن عصا القيادة ، التى اختطفها (زايون) فى لهفة ، قائلا فى حزم :

ـ سأثبت لك أننى الأكثر مهارة أيها المتحذلق .

كان (فاى) يواصل العدو ، وهو يحلّ حزامه ، ويربطه بفردتى الحذاء من الطرفين ، فغمغم (زايون) متوترا :

ـ ما الذى يفعله بالضبط ؟!

أشار الطيّار بيده ، قائلا :

ـ لم يعد لى شأن بما يفعله .

دار (زايون) بالهليوكوبتر ، وعقله يتساءل عما يفعله الشاب بالضبط ، ثم لم يلبث أن طرح كل هذا خلفه ، وقال فى صرامة :

ـ فليفعل ما يحلو له ، ما دام سيلقى مصرعه فى النهاية .

قالها ، وتجاوز الشاب ، دون أن يطلق عليه النار ، فارتفع حاجبا الطيّار فى دهشة ، وهو يقول :

ـ إنك لم تطلق النار .

أجابه (زايون) فى حزم ، وهو يدور بالهليوكوبتر حول نفسها :

ـ وسائلى تختلف .

كان بمناورته هذه يواجه الشاب مباشرة ، بدلاً من السعى خلفه ، فهتف الطيّار مبهورا :

ـ فكرة رائعة .

ارتسمت على شفتى (زايون) ابتسامة واثقة ظافرة ، وهو ينقضّ على الشاب مباشرة ، و ..

ويضغط زر إطلاق النار .

وكان الموقف عنيفا .

عنيفا بحق ..

* * *

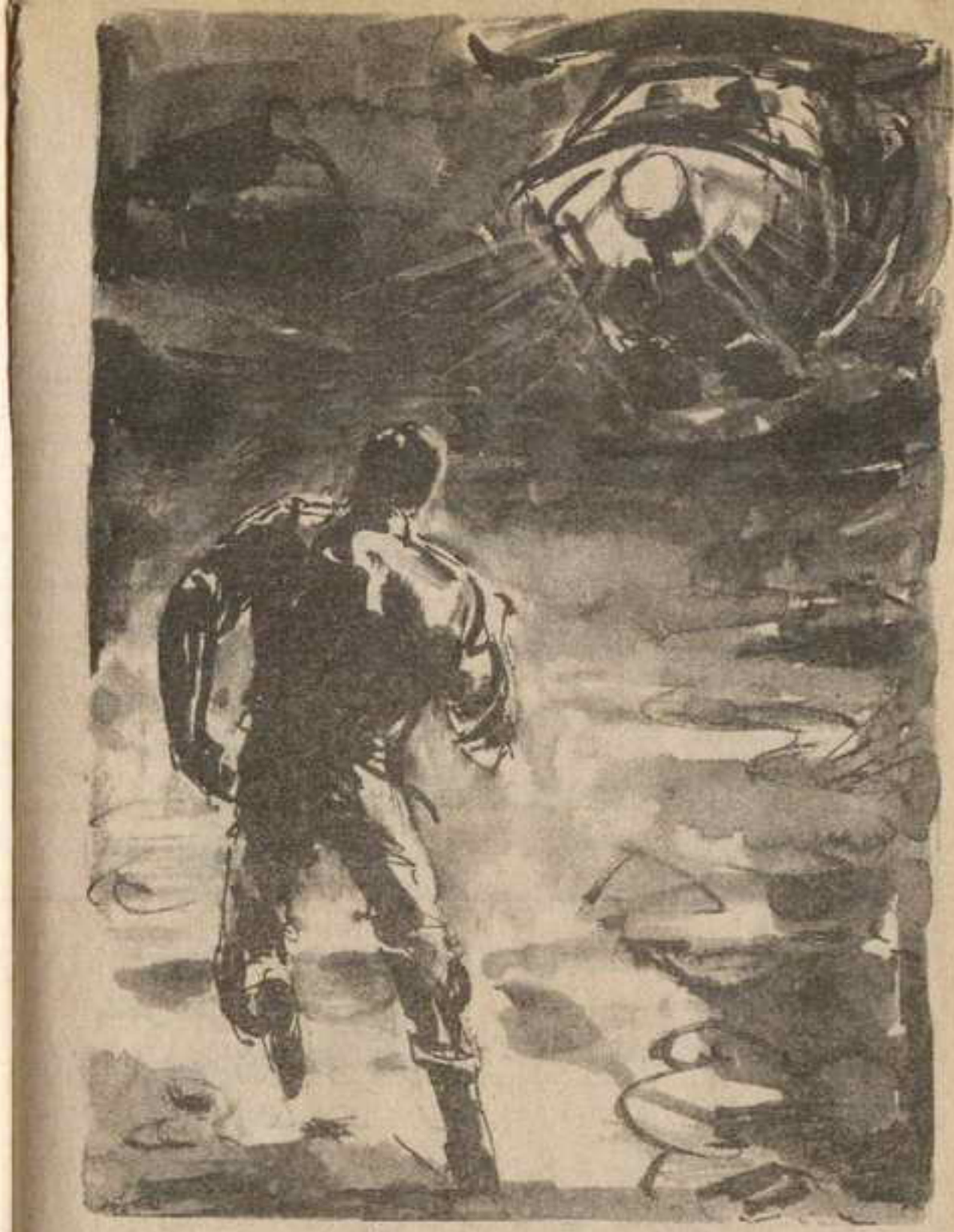

كان بمناورته هذه يواجه الشاب مباشرة ، بدلاً من السعى خلفه ..

٦ ـ اللمسة الأخيرة ..

لم تكن عقارب الساعة قد بلغت السادسة صباحًا بعد ، عندما ارتفع رنين الهاتف الأحمر الخاص ، فى حجرة مكتب مدير المخابرات العامة المصرية ، فاختطف سمّاعته بسرعة ، قائلاً :

ـ صباح الخير يا سيادة الرئيس .. لم أتصوّر أنك ستستيقظ مبكرًا إلى هذا الحد !.. أعنى بعد اجتماع البارحة .

أجابه رئيس الجمهورية فى صوت يحمل رنة إجهاد واضحة :

ـ إننى لم أنم بعد .. لم يغمض لى جفن طوال الليل ، وأنا أفكّر فى بطلنا ، الذى هبط فى أرض العدو .. قل لى : ألديكم معلومات حديثة بشأنه ؟

أجاب مدير المخابرات فى حزم :

ـ بالطبع يا سيادة الرئيس .. آخر رسالة تلقيناها من المقدّم (نسيم) ، تؤكدّ أن الشاب لم يلق مصرعه ، وأنه يقاتل للخروج من نطاق العدو .

قال الرئيس فى ابتهاج :

ـ عظيم .. عظيم .. امنحه كل المساعدات الممكنة .. سآمر كل أجهزة الدولة بالتعاون معك .. أريد استعادته بأى ثمن .

تردّد مدير المخابرات لحظة ، قبل أن يقول :

ـ الواقع أن المقدّم (نسيم) قام بمبادرة شخصية يا سيادة الرئيس ، وإن كنا نخشى رد الفعل الذى يمكن أن ينشأ عنها .

سأله الرئيس فى اهتمام :

ــ وما هذه المبادرة ؟

أجاب مدير المخابرات على الفور :

ــ لقد انطلق بطائرة هليوكوبتر إلى ما خلف خطوط العدو ، فى محاولة لالتقاط الشاب ، من خلف ممر (متلا) .

صمت الرئيس بضع لحظات ، قبل أن يقول فى قلق :

ــ هذا سيستفز الإسرائيليين حتمًا .

سأله مدير المخابرات فى حذر :

هل نطالبه بالعودة يا سيادة الرئيس ؟

أجابه الرئيس فى سرعة وحزم :

ــ مطلقًا .. لن نتخلى عن بطلنا أبدًا .

وازدادت لهجته حزمًا ، وهو يضيف :

ــ لو أن الأمر يخص الإسرائيليين ، لأرسلوا جيشًا كاملاً لالتقاط رجلهم ، من أى مكان ، دون أن يبالوا بقواعد أو أعراف ، أو حتى مواثيق دولية .. دعهم يضربون رءوسهم بالجدران ، وليعلنوا السبب الحقيقى لوجود رجلنا خلف خطوطهم ، لو أنهم يجرءون على هذا .. دعنا نستفزهم قليلاً يا رجل .. المهم أن نستعيد بطلنا .

ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتى مدير المخابرات ، وهو يقول :

ــ هذا ما نتوقعه دومًا من رئيسنا .

صمت الرئيس لحظة ، قبل أن يقول :

ــ اخبرنى بأية تطورات ، وأريد أن أستقبل البطل فى منزلى بنفسى ، فور عودته إلى الوطن .

قال مدير المخابرات ، قبل أن ينتهى الاتصال :

ــ سنبذل قصارى جهدنا لتحقيق هذا يا سيادة الرئيس .

وأعاد السماعة إلى موضعها ، وهو يستطرد مغمغمًا :

ــ هذا لو استعدنا الشاب على قيد الحياة .

وكانت عبارته دقيقة بالفعل ..

لو استعادوا الشاب ..

على قيد الحياة ..

* * *

عندما انقضّ (زايون) بالهليوكوبتر على الشاب ، كان واثقًا من الانتصار ، على نحو لا يقبل الجدل ..

ولكن فجأة ، رفع (فاى) حزامه ، بالحذاءين المعقودين فى طرفيه ، وأداره فى يده بمهارة مدهشة ، وهو يندفع نحو الهليوكوبتر ..

ولم يفهم (زايون) ما يحدث ، فاندفعت سبّابته نحو زر إطلاق النيران ..

وألقى (فاى) حزامه ..

وفى نفس اللحظة ، فهم الطيّار ما يسعى إليه الشاب ، فانقض على عصا القيادة ، وجذبها هاتفًا :

ــ احترس ..

انطلقت الرصاصات ، فى نفس اللحظة التى مالت فيها الهليوكوبتر إلى أعلى قليلاً ، فطاشت كلها فى الهواء ، ولم تمس جسد الشاب ، فى حين طار حزامه وفردتا الحذاء تدوران حول

نفسيهما ، حتى ارتطم بمروحة الهليوكوبتر ، فالتف حولها بسرعة مدهشة ، وصرخ الطيّار فى ذعر :

ـ يا للشيطان .. لقد فعلها .

فهم (زايون) الموقف كله ، مع تلك القرقعة المخيفة ، التى انطلقت من المروحة ، قبل أن تتوقف بغتة عن الدوران ، وتميل الهليوكوبتر على نحو بالغ الخطورة ، جعل رجل المخابرات الإسرائيلى يصرخ فى هلع :

ـ اللعنة !.. اللعنة !..

وفى اللحظة التالية ، ارتطمت مروحة الهليوكوبتر برمال (سيناء) فى قوة ، وتحطمت فى عنف ، و(فاى) يلقى نفسه أرضًا ، ويتدحرج مبتعدًا عن المكان كله ، والشظايا المتطايرة من المروحة المحطّمة تتطاير فى كل مكان ..

ثم ارتطم جسم الهليوكوبتر نفسه بالرمال ، وتفجّرت عاصفة هائلة منها ، وهى تتدحرج فى عنف ..

وكان المشهد رهيبًا بحق ..

وتحطّم ذيل الهليوكوبتر ، وتطاير بدوره فى اتجاه آخر ، مع مروحته الجانبية ، وتصاعدت سحب الرمال على نحو مخيف ..

ثم استقرّ حطام الهليوكوبتر فوق رمال الصحراء ..

وهبطت سحب الرمال فى بطء .

ولثوان ظلّ الشاب راقدًا فى مكانه ، ثم لم يلبث أن نهض فى بطء ، لينفض الرمال عن جسده ، ويتطلّع إلى حطام الهليوكوبتر ، قبل أن يتجه نحو مروحتها المحطّمة ، ويستخلص من بينها حزامه وفردتى حذائه ..

كان ذلك السلاح الذى صنعه ، والذى أسقط به الهليوكوبتر ، قديمًا قدم الدهر ، ويحاكى الأسلحة التى استخدمها سكان العصور الحجرية ، والتى مازالت تستخدمها بعض القبائل الإفريقية البدائية ، والتى تتكون من حجرين ، يربطهما حبل طويل ، بحيث يساعدان التفاف الحبل حول سيقان الفريسة ، لمنعها من الفرار(*) .

وفى هدوء ، ارتدى الشاب حذاءه وحزامه ، ونهض يلقى نظرة أخرى على حطام الهليوكوبتر ، قبل أن يتجه نحوها فى بطء ..

كان يسعى للحصول على سلاح ..

أى سلاح ، يعاونه على عبور ممر (متلا) ، من الشرق إلى الغرب ..

وعندما انحنى ليلقى نظرة داخل الهليوكوبتر المحطّمة ، وقع بصره على جثة الطيّار ، الذى تحطّم عنقه ، ومال رأسه على صدره بزاوية مخيفة ، و...

ولم تكن هناك جثة أخرى ..

وانعقد حاجبا الشاب ، وهو يتساءل فى أعماقه : أين ذهب الشخص الآخر إذن ؟!..

لم يكن السؤال قد تجاوز عقله ، أو بلغ أطراف شفتيه ، وعلى الرغم من هذا ، فقد سمع من خلفه صوتًا عصبيًا غاضبًا ، يقول :

ـ هنا .

استدار الشاب إلى مصدر الصوت فى سرعة ، وتطلّع فى صمت

(*) حقيقة .

متوتّر إلى (زايون) ، الذى بدا فى حالة يرثى لها ، مع التمزقات فى زيه ووجهه ، وشعره الأشعث على نحو عجيب ، وهو يصوّب إليه مسدسًا كبيرًا ، ويستطرد فى غضب :

ـ لم تكن تتوقّع نجاتى .. أليس كذلك ؟

أجابه الشاب فى خفوت :

ـ كل شىء محتمل .

هتف (زايون) فى حدة :

ـ نعم .. كل شىء محتمل .. حتى انتصارك على كل هذا العدد من رجالنا .. هل تعلم أيها المصرى ؟.. أنت محظوظ .. محظوظ كثيرًا .

قال الشاب فى حزم :

ـ لا شأن للحظ بهذا .

صاح (زايون) ، وهو يلوّح بيده فى غضب :

ـ لا تقل لى : إنك انتصرت لمهارتك وبراعتك .. كل ما حدث كان مجرّد ضربة حظ .. هل تفهم ؟!.. مجرّد ضربة حظ ..

صمت الشاب تمامًا ، دون أن يحاول التعليق على هذا القول المجحف ، فتابع (زايون) فى عصبية :

ـ ولكن كل شىء انتهى الآن .

ومدّ يده إليه ، مستطردًا فى صرامة :

ـ أعطنى الوثيقة .

تجاهل الشاب اليد الممدودة ، وهو يقول :

ـ من أدراك أننى مازلت أحتفظ بها ؟

انعقد حاجبا (زايون) فى غضب ، وهو يقول :

ـ لا داعى للمناورات .. كلانا محترف ، ويدرك أنه من العبث الدخول فى حوار سخيف كهذا .

ثم تراجع بضع خطوات ، مستطردًا فى عصبية ..

ـ ولكن لا بأس .. لا تعطنى إياها .

وجذب إبرة مسدسه ، مستطردًا فى حدة :

ـ سأنتزعها من جثتك .

وأطلّ قدر هائل من المقت والكراهية ، من كل ذرة فى ملامحه ، وهو يضيف :

ـ وداعًا أيها المصرى .. لقد أرهقتنا كثيرًا ، ولكنك خسرت فى النهاية ..

حاول الشاب دراسة الموقف بسرعة ، والبحث عن وسيلة للنجاة ، و...

ودوت الرصاصات ..

ومع دويها ، انتفض جسد الشاب فى عنف ، وتصوّر أنها اخترقت جسده كلها ، ولكن لماذا لم يشعر بأدنى ألم ؟!..

أدرك الجواب على الفور ، مع هدير مروحة الهليوكوبتر ، الذى صكّ مسامعه بغتة ، ومشهد (زايون) ، الذى اتسعت عيناه فى ألم ورعب ، وتفجّرت الدماء من مواضع عديدة فى جسده ، وهو يغمغم :

ـ ولكن هذا مستحيل !. مستحيل !

وفى نفس اللحظة ، التى هوى فيها جثة هامدة ، ارتفع صوت

(نسيم) ، وهو يهتف فى مرح وسعادة :

ــ مرحى أيها النسر ..لقد وصلنا فى اللحظة المناسبة بالضبط .

لم يتمكن الشاب أبدًا من وصف مشاعره ، فى تلك اللحظة ، عندما لمح الهليوكوبتر المصرية ، وهى تنخفض إلى ارتفاع متر واحد عن سطح الأرض ، و(نسيم) يشير من داخلها ، هاتفا :

ــ هيا يا بطل .. دعنا ننصرف من هنا بأقصى سرعة .

انطلق الشاب نحوه ، وقفز يتعلق بالهليوكوبتر ، التى ارتفعت على الفور ، وهو يدفع جسده داخلها ، ويلهث قائلاً :

ــ تم تنفيذ المهمة يا سيادة المقدّم .

ارتسمت على شفتى (نسيم) ابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

ــ حمدًا لله على سلامتك يا بطل .

انطلق الطيّار بالهليوكوبتر ، هاتفًا :

ــ لقد أشرقت الشمس بالفعل .. لن تكون عودتنا سهلة أبدًا .

هتف به (نسيم) فى حماس :

ــ استخدم كل براعتك يا رجل .. طر على ارتفاع منخفض ، وتفاد كل نقاط الرادار ، وراوغ هؤلاء الأوغاد ، وسنصل سالمين بإذن الله .

وربّت على كتفى (فاى) ، مستطردًا :

ــ لقد استعدنا بطلنا .. وهذا هو المهم .

وانطلقت الهليوكوبتر المصرية ، فى طريق العودة ، وكأنها تعلن انتهاء العملية ..

عملية النسر المنفرد ..

* * *

ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتى رئيس الجمهورية ، وهو يصافح الشاب ، فى القصر الجمهورى ، ويربت على كتفه فى حرارة ، قائلا :

ــ حمدا لله على سلامتك يا بطل .. (مصر) تدين لك بالكثير .

انتفض كيان الشاب كله ، مع ذكر اسم (مصر) ، وغمغم فى خفوت :

ــ كلنا فداء (مصر) يا سيادة الرئيس .

أومأ الرئيس برأسه ، قائلا :

ــ أنت خير دليل على هذا أيها البطل .

ثم تطلّع إليه فى إعجاب ، قبل أن يضيف :

ــ قل لى يا بطل : ما نوع المكافأة التى تفضّلها بالضبط ؟

أجاب الشاب بسرعة :

لقد حصلت على مكافأتى بالفعل يا سيادة الرئيس .

قال الرئيس فى حيرة :

ــ وكيف هذا ؟

شدّ الشاب قامته ، قائلا فى حزم :

ــ كان لى شرف الإسهام فى الحفاظ على أمن (مصر) .

ابتسم الرئيس ، قائلا :

ــ و (مصر) تدين لك بالشكر .

واتسعت ابتسامته ، وهو يستطرد فى لهجة ذات مغزى خاص :

ــ أيها النقيب .

ارتفع حاجبا الشاب فى دهشة ، وهمّ بتصحيح رتبته للرئيس ،

إلا أنه فهم الأمر فى سرعة . فارتفع حاجباه فى تأثر . والرئيس يربت على كتفه ، قائلا بابتسامة كبيرة :

ــ أنت تستحق هذه الترقية الاستثنائية يا بطل .

ظلت العبارة تتردد فى رأس (فاى) طويلا ، وهو يجلس إلى جوار (نسيم) ، فى سيارة هذا الأخير ، التى تنطلق عائدة إلى مركز التدريب الخاص ، وارتسمت على شفتى رجل المخابرات القدير ابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

ــ أعتقد أنه حان الوقت لأهنئك شخصيًا .

تمتم الشاب :

ــ أشكرك يا سيدى .. الواقع أننى أدين لك بالكثير ، فأنت أستاذى ومدربى ، بعد سيادة المقدم (رفعت) .

نطق الجزء الأخير فى تأثر واضح ، جعل (نسيم) يرمقه بنظرة جانبية ، قبل أن يقول ، محاولا تغيير الموضوع :

ــ هل تعتقد أن تدريباتك كانت كافية ، لمواجهة الموقف فى (سيناء) ؟

صمت الشاب لحظة ، قبل أن يجيب فى حزم :

ــ أعتقد أننى مازلت فى حاجة إلى المزيد .

أومأ (نسيم) برأسه إيجابًا ، وقال :

ــ مازال فى قدرتك استيعاب أضعاف ما تعلمته .

ثم التقط ورقة أنيقة من أمامه ، وناولها للشاب ، قائلا :

ــ وبالمناسبة .. أنت تستحق شهادة التقدير هذه .

انعقد حاجبا الشاب فى تساؤل ، وهو يلتقط الشهادة ، ولم يكد يلقى نظرة عليها ، حتى ارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة ..

فقد كانت واحدة من الشهادات ، التى يقدمها جهاز المخابرات للمتفوقين والمتميزين من رجاله ..

وفى موضع الاسم منها ، كان هناك شكل بيضاوى ، يقطعه خط مائل مستقيم ..

وكان هذا هو الرمز ، الذى يحمله دوما ، فى كل الأوراق الرسمية ..

الرمز الذى لم ولن يحمله سواه ..

رمز (فاى) .

* * *

[تمت بحمد الله]

عملية النسر المنفرد

* مامصير (فاى)، بعد هبوطه من الطائرة، فى أرض العدو؟!..
* كيف يواجه رجل واحد القوات الإسرائيلية، فى قلب (سيناء)؟!..
* تُرى هل ينجح الإسرائيليون فى استعادة وثيقتهم، أم يظفر بها (النسر المنفرد)؟!..
* اقرأ التفاصيل المثيرة، وقاتل مع صاحب اللقب الفريد ... (فاى) ...

عملية (تل أبيب)

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

المرأة مشكلة .... صنعها الرجل

(دراسة)

« اهداء

إلى كل من تقرأ هذه الدراسة .
إلى كل امرأة ..
إلى كل مشكلة .. صنعها رجل ..

د. نبيل فاروق

١ ـ لماذا هذا الكتاب ؟..

انظر حولك !..

العبارة السابقة ليست مجرّد فعل أمر بلا معنى ..

وليست أيضًا شعارًا لحملة من حملات تنظيم الأسرة الشهيرة ..

إنها ، وبكل بساطة ، جواب السؤال ، الذى يحمله عنوان هذا الفصل ..

نعم .. انظر حولك ، ستعرف لماذا راودتنى فكرة وضع هذا الكتاب !..

انظر إلى ما وصلت إليه العلاقة بين الرجل والمرأة ، فى عصرنا هذا ..

من المؤكّد أنها لم تعد تحمل شيئًا من المودّة والرحمة ، اللذين أشار لهما القرآن الكريم ، وهو يصف هذه العلاقة الطبيعية ، واللذين أشارت إليهما كل الديانات السماوية ، والمذاهب الدنيوية ، والنظريات الاجتماعية ، منذ أيام (آدم) و (حواء) ..

لقد أصبحت أشبه بالعلاقة بين دولتين عظميتين ، تسعى كل منهما لدحر الأخرى ، والفوز بالسيطرة المطلقة على العالم أجمع ..

وامتزج كل شىء . فى علاقة الرجل والمرأة . بالشك ، والحذر ، والتوتر ، والعنف ، والصراع ..

وأصبح كل منهما يتحفز للآخر فى كل لحظة ، ويتصيد له الأخطاء بلا هوادة ..

فالرجل يراقب المرأة طوال الوقت ، ويستنكر خروجها للعمل ، ومنافستها له فى الوظائف والمناصب ، ويعلن فى كل مناسبة ـ وبدون مناسبة ـ أن هذا هو سبب فساد المجتمع ، بعد أن نسيت المرأة دورها كزوجة وأم ، ولم تعد تهتم برعاية زوجها والعناية بأطفالها وتربيتهم ، ثم يحنقه ـ فى الوقت ذاته ـ أن تبدى المرأة شيئا من التفوق عليه فى العمل ، أو تنجح فى الفوز بمنصب يفوق منصبه ، ويتهمها باستغلال أنوثتها ، والتقرب إلى الرؤساء ، وبأنها فازت بذلك المنصب بفضل دلالها لا كفاءتها ..

بل ويتمادى بعض الرجال ، فيصرون على أن المرأة ـ أية امرأة ـ لا يمكنها أن تمتلك ذكاء أو براعة الرجل ، مهما فعلت أو درست أو بذلت من جهد ، وكأنما اقتصرت هذه الصفات على الرجال وحدهم دون النساء ..

وفى الوقت نفسه تتهم المرأة الرجل بالغرور والصلف والعناد ، وبأنه يتصور أن رجولته وحدها هى مسوغات دخوله إلى عالم النجاح والترقى ، على الرغم من كسله وتقاعسه ، وإصراره على الاعتماد عليها فى كل ما يخص نجاحه ، بعد عودتها من العمل ، وكأن المنزل مسئوليتها وحدها ، وهو مجرد ضيف دائم فيه ..

وهكذا تبدأ المشاكل بين الطرفين ..

ويتم تبادل الاتهامات ..

حتى المراهقين والمراهقات ، أصبحت العلاقة بينهما عصبية متحفزة ، وكل منهما يسعى لإثبات تفوقه ، وكأنما صارت الدنيا حلبة سباق ، لا يربح فيها إلا الأكثر قوة ومهارة ..

وأحيانا الأكثر قسوة .

والظاهرة الأكثر وضوحا ، هى اختفاء الحدود الطبيعية بين الفتى والفتاة ..

كلاهما يرتدى الأزياء نفسها ..

نفس الطراز والألوان ..

بل ونفس أسلوب تصفيف الشعر ، فى بعض الأحيان ..

وفى غمرة هذا التقارب ، الذى أطلق عليه مصممو الأزياء اسم (الجنس الموحد) ، نسيت الفتاة أنوثتها ..

أو تناستها بمعنى أدق ..

ففى أعماقها ، تشعر الفتاة أن أنوثتها هى سر ضعفها ..

هى التى تنتزع منها الكثير من الحقوق ، التى يتمتع بها الفتى ..

فأنوثتها هى التى تمنعها من العودة إلى منزلها فى وقت متأخر ..

ومن الخروج وقتما تريد ..

وهى التى تجعلها موضع متابعة واهتمام وقلق الوالدين طوال الوقت ..

لذا ، فهى ـ على عكس ما ينبغى ـ تسعى للتخلص من مظاهر أنوثتها ، كمحاولة منها للتحرر ، وللتخلص من أكبر نقطة ضعف فى حياتها ..

ومن هذا المنطلق ، أصبحت الفتاة الحديثة ترفض الأزياء ذات الطابع الأنثوى ، وتميل إلى الأحذية المنخفضة ، وتصفيفات الشعر المتحررة ، وأسلوب المشى والحديث القريب من أسلوب الفتيان ..

والعجيب أن هذا لا يحدث قط ، فى البلدان المتحررة بالفعل ..

ففى (أوروبا) و (أمريكا) ، تحرص الفتاة بشدة على أنوثتها ، وتفخر وتتباهى بها طوال الوقت ، ولا تشعر أبدا بعقدة النقص ، التى تعانيها الفتاة المصرية أو العربية ، على الرغم من أنها ـ أيضا ـ لا تحصل على نفس القدر من الحرية ، التى يحصل عليها الفتى هناك ، حتى تبلغ الثامنة عشرة على الأقل ..

وحتى الفتيان هنا ، يعانون افتقارا واضحا فى الثقة بالنفس ، ولكنهم يحاولون إخفاء هذا خلف ستار من الاستهتار واللامبالاة وكأنما انعكست الآية ، ولم يعد احترام الذات والإحساس بالمسئولية جزءا من مظاهر الرجولة الحقة ..

وعندما تشعر الفتاة بانعدام ثقة الفتى بنفسه ، تندفع محاولة كسب المعركة ، والسيطرة عليه ، وكأنها وجدت فرصة للفوز فى المعركة الأزلية ، بين الذكر والأنثى ..

وفى كل صدام مباشر ، بين الرجل والمرأة ، يصطدم الأول بحقيقة لم ينتبه إليها من قبل ..

أنه يجهل الكثير عن عالم المراة وطبيعتها ..

فلأن الرجل لا يعانى عقد نقص كبيرة ، أو تقاليد اجتماعية تحيطه بأسوار كبيرة غير مرئية ، فهو يتصرف فى معظم الأحوال بشكل واضح ، يجعل من السهل على المرأة أن تفهمه ، وأن تدرك طبيعته وانفعالاته ، وكيفية التعامل معه ..

والسيطرة عليه وقت اللزوم ..

أما المراة ، فطبيعتها ، وحياؤها ، والمجتمع من حولها ، كلها عوامل تمنعها من إفشاء أسرارها وأعماقها ، وتجبرها على العيش فى مسرحية دائمة ، تبذل قصارى جهدها خلالها ، للقيام بدورها خير قيام ، ووضع نفسها فى أفضل وأجمل صورة ممكنة ، فتتعلم مع الوقت إخفاء مشاعرها ، والسيطرة على انفعالاتها ، وإخفاء ردود أفعالها ، إلا عندما ترغب بإرادتها فى كشف ما تشاء من كل هذا ..

ولكل الأسباب السابقة ، يحار الرجل فى مواجهة المرأة ، ويتصوّر دوما أنها كائن غامض ، لا سبيل إلى فهمه قط ..

ولقد تلقّف عدد من كبار الكتاب والمفكرين هذه الفكرة ، وراحوا يتحدثون ويتحدثون عن غموض المرأة وطبيعتها المبهمة ، وعدم قدرتهم على فهمها ..

ولأن المرأة تميل إلى التميّز والتفرّد ، فقد أسعدها ما وصفها به المفكرون والكتّاب ، وتمسكت به ، وراحت تردّده فى كل المحافل والمناسبات ، حتى صدّقته هى نفسها ، وأصبحت تعتبره جزءا من شخصيتها وسحرها ..

ولم يكن هذا هو الخطأ الوحيد ، الذى وقع فيه المفكرون والكتاب بشأن المرأة ، بل كان هناك خطأ أكبر ، يتمثّل فى إلحاحهم المستمر على أنه لا كيان أو شخصية للمرأة ، إلا إذا حصلت على وظيفة ما ، وتقاضت مرتبًا ثابتًا مضمونًا ..

وكانت هذه أكبر طعنة للأنوثة والأمومة ..

وأكبر خدعة صدّقتها النساء ..

لقد فقدت كل امرأة احترامها لدورها كزوجة وأم ..

لم تعد تثق بإمبراطوريتها ..

لم تعد تعترف بأنها أميرة فى منزلها ، وأصرّت بإرادتها على التنازل عن مملكتها ، والعمل كأجيرة فى مملكة أخرى ، متصوّرة أن منصب الأجيرة

يمنحها كيانا وشخصية ، بأكثر مما يمنحها إياه عرش الأميرة .

أو أنها لم تشعر بجلوسها على ذلك العرش فعليًا ..

المهم أن الزوجة أصبحت تحتقر نفسها ، عندما ترعى زوجها ، كما أمرتها كل الأديان السماوية ، وتكره نفسها عندما تلعب دور الأم ، التى لو أعددتها لأعددت شعبا طيب الأعراق ..

أصبح العمل ، والعمل وحده ، هو كل كيانها وشخصيتها ومبعث زهوها وفخرها ..

والطريف أننى لم ألتق ، فى حياتى كلها ، بامرأة واحدة ، تعترف بأن انغماسها فى العمل أساء إلى حياتها الزوجية ، أو إلى دورها كأم ، بل على العكس تمامًا ، تصرّ كل واحدة منهن باستماتة عجيبة ، على أنها قادرة تمامًا على التوفيق بين عملها ومنزلها ، على الرغم من أن هذا مستحيل منطقيًا وعمليًا ..

ودليل المرأة الوحيد ، على حدوث هذا التوفيق ، هو نظام ونظافة منزلها ، وحصول أبنائها على أفضل الدرجات فى دراستهم ..

ولا يهم بعدها ما إذا كان هؤلاء الأبناء مصابين بطن من العقد النفسية ، الناشئة عن نقص الحنان والرعاية ، أو أن الزوج يفتقد لمسة الحنان من زوجته ، التى تعود من عملها مجهدة ، ثم تنهمك فى تنظيم المنزل وتنظيفه ، ولا تصبح لديها بعدها القدرة على أن تبتسم له ، أو حتى تهتم بسؤاله عن عمله وأحواله ..

ولا يهم أن تصبح هى عصبية متهوّرة ، من شدة إرهاقها ،

ولا أن ينعكس هذا على الأبناء والزوج ، والحياة المنزلية كلها ..

بل ولا يهم أن تنطوى البنات ، وربما الأولاد أيضا ، ما دامت الأم تصر على إثبات أنها ناجحة فى عملها ، وفى التوفيق بينه وبين منزلها ، حتى ولو كان الثمن هو المنزل نفسه واستقراره ..

أو الزوج ..

ففى غمرة سعى المرأة الدءوب لإثبات نجاحها فى العمل خارج البيت ، تنسى كثيرا أنه من الضرورى أن يبدأ النجاح فى داخل البيت نفسه ..

ولأن الفشل لا يقفز إلى السطح دفعة واحدة ، فالمرأة لا تنتبه إليه فى المعتاد ، إلا بعد أن يصبح حقيقة واقعة ..

والعجيب أنها أول من يصاب بالدهشة حينذاك ..

والمرأة لا تعترف أبدا بالخطأ ، ولا تحمّل نفسها مسئولية أى فشل ، مهما كانت أسبابه ..

بل وترفض الربط بينها وبين الفشل ، بأية صورة كانت ..

ولكنها تتذوّق مرارته بشدة ..

وعلى عكس ما يتصور البعض ، تتزايد نسبة الطلاق فى المعتاد ، بين الفئات المتعلمة والمثقفة وفوق المتوسطة ..

ونسبة طلاق السيدات العاملات تبلغ ضعف نسبة طلاق ربات البيوت تقريبا ..

فما الذى يعنيه هذا فى رأيك ؟..

هل يعنى بالفعل أن المرأة العاملة تستطيع التوفيق بين عملها ومتطلبات منزلها !!

والأسباب التى تدفع المرأة إلى العمل كثيرة وعديدة ، ولكن على رأسها الرغبة فى الاستقلال المادى والاقتصادى ، وعدم الاعتماد على الزوج فى نفقاتها الشخصية ..

ولكن عدوى عمل المرأة تنتشر على نحو مدهش ، مع مرور الزمن ..

فحتى النساء اللاتى لا يحتجن إلى الاستقلال الاقتصادى أو المادى ، أصبحن يعتبرن العمل ضرورة لا تقبل الجدل ..

بل ويصل الأمر فى بعض الأحيان – إلى أن المرأة تستأجر مربية لأطفالها ، بمبلغ يفوق راتبها من وظيفتها ، التى تركت أطفالها من أجلها !

ومازالت هذه النقطة بحاجة إلى تفسير منطقى ..

وعند كلمة (منطقى) هذه ، ينبغى أن نتوقّف كثيرا ..

فالمنطق عند المرأة يختلف تماما عنه عند الرجل ..

بل وربما يتعارض معه أيضا ..

وعلى الرغم من الشائعة التى تقول : إن الرجل أكثر عملية من المرأة ، وأن المرأة أكثر عاطفية من الرجل ، إلا أن الواضح فى هذا الزمن يؤكد العكس تماما ؛ فقد صارت المرأة عملية للغاية ، ومع عمليتها الزائدة ، أصبح الرجل يفتقر إلى العواطف ، ويطمح إليها طوال الوقت ..

وهكذا انعكست الآية ..

أصبح الرجل عاطفيًا ، وصارت المرأة عملية ..

ولكن المرأة ما زالت تعتمد ، فى جزء كبير من طموحها ، على نجاح الرجل ، سواء أكان زوجها أو والدها ، أو حتى ابنها ..

فمن أهم طموحات الفتاة أن تتزوج رجلاً ثريًا مرموقًا ..

ومن أحلام البنت أن يثرى والدها ويتفوق ..

وحتى الأم ، تتمنى أن يصبح ابنها أشهر وأغنى وأفضل شخص فى العالم أجمع ..

وفى كل الأحوال ، فهى تسعى لطى هذا الرجل الناجح تحت جناحها ..

ولعبة السيطرة هذه واحدة من أشهر ألعاب ومتع المرأة ..

ولديها ألف وسيلة ووسيلة للوصول إلى هذا ..

وكعادتها فى اختيار السبل الأكثر راحة ، فهى تبدأ بمحاولة السيطرة المباشرة ، وتترقب رد الفعل فى انتباه شديد ، فلو استقبل الرجل محاولتها هذه بالغضب والثورة ، انتقلت مباشرة إلى السبيل التالى ، وأطلقت دموعها من عينيها ، وألهبت قلبه ومشاعره ، حتى يسعى إليها ، ويستسلم لإرادتها ، فتفوز باللعبة كلها ..

أما لو رضخ للسيطرة المباشرة ، فهذا لا يسعدها أبدا ..

إنها على العكس ـ تضيق به ، وتغضب منه ، وتكاد أن تصفعه على وجهه ، صارخة :

ـ لا تستسلم لى هكذا .. قاومنى بشدة .

فالمرأة لا يروق لها أبدًا أن تنتمى إلى رجل ضعيف مستسلم ..

إنها تبحث دائمًا عن الرجل القوى ، الذى يرضخها لإرادته ، حتى ولو كانت من النوع المسيطر ..

ولكن شرط المرأة الوحيد أن يفعل هذا بأسلوب حازم ، لا يخلو من العطف ..

فهى تكره القسوة ..

وتخشاها ..

والرجل المثالى ، بالنسبة للمرأة الطبيعية ، هو صاحب الشخصية القوية بغير خشونة وصاحب الطبيعة الحازمة بغير قسوة أو غلظة ..

ولو لم تجد المرأة ذلك الرجل ، فهى تضطرب وتتوتر بشدة ، وتصبح تصرفاتها عنيفة وعصبية ، وكأنها تعلن أسفها على الارتباط برجل لا يفجر الأنوثة الكامنة فى أعماقها ، ولا يملأ عينيها على حد قولها ..

إلا أنها لا تصرح بهذا قط ، فهى تعتبر فشلها فى الفوز بالرجل المناسب نقطة ضعف فى شخصيتها وكيانها ، وتسعى لإخفائها بكل السبل ..

وتتحول حياتها إلى جحيم ..

ولكنها لا تعترف بهذا أبدا ..

تماما كما لا تعترف أبدا بأن عملها يمنعها من رعاية منزلها وزوجها وأبنائها على نحو جيد ..

والطريف أن المرأة ، عندما تعجز عن التوفيق بين عملها ومنزلها ، فإنها تعكس هذا أول ما تعكسه على زوجها ، فتثور فى وجهه ، وتتهمه بتجاهلها ، وعدم معاونتها فى أعمال المنزل ، دون أن تدرك ما فى الأمر من مفارقة مضحكة ..

إنه يشبه تماما ما يمكن أن يحدث بالنسبة لشخصين ، يعمل أحدها كمدير للمبيعات ، والآخر كمدير للمشتريات ، ثم يصر مدير المشتريات على الخروج للعمل مع مدير المبيعات ، وعندما يتحقق له هذا ، ويعجز عن التوفيق بين عمله فى المشتريات ، وخروجه للعمل مع مدير المبيعات ، يثور على هذا الأخير ، ويطالبه بالقيام ببعض عمله فى إدارة المشتريات !!

لماذا هذه الدورة المعقدة إذن ؟!..

لماذا لم يظل فى موضعه كمدير للمشتريات ، ويترك لزميله مهنة مدير المبيعات ؟!

ربما بدا هذا المثل مضحكا ولكنه لا يتجاوز ما يحدث فعليا ..

فقديما ، كان الرجل يهتم بالشئون الخارجية ، ويترك للمرأة الشئون الداخلية ، وكل شىء يسير على ما يرام فى الجانبين ..

ثم قررت المرأة أن تخرج للاهتمام بجانب من الشئون الخارجية ..

وعندما انقسم ظهرها ، فى محاولة التوفيق بين عملها فى الشئون الخارجية والداخلية ، ثارت على الرجل ، وطالبته بمشاركتها بعض الاهتمام ، فى الشئون الداخلية ..

واختل الزورق ..

وبدأت المشكلات ..

ولكنها مشكلة الكيان والشخصية والوجود مرة أخرى ..

وكمعلومة تاريخية اجتماعية ، فإن عمل المرأة فى (مصر) لم يبدأ وينتشر بحثا عن الذات والشخصية والوجود ، كما تتصور بعض النساء ، وإنما كان انعكاسا اقتصاديا بحتا للمتاعب المالية فى فترة الستينات ..

ففى تلك الفترة ، نشأت أزمة المساكن ، ولم يعد مرتب الخريج يكفى لحياة كريمة ، لذا فقد سعى معظم الشباب إلى الزواج من امرأة عاملة ، للجمع بين مرتبه ومرتبها ، كوسيلة للحصول على دخل مناسب ..

ولأن العمل صار السبيل الوحيد للزواج السريع ، تكالبت الفتيات على البحث عن عمل ، كخطوة أولى للبحث عن زوج مناسب ..

ثم انتشر المبدأ ، وصار أمرا طبيعيا ، لم يعد أحد يفكر كيف بدأ ونشأ ..

تماما كما يحدث لكل تطوراتنا وعاداتنا الاجتماعية ..

لا أحد يذكر كيف ومتى ولماذا نشأت !..

إننا نعتادها مع مرور الوقت فحسب . وتصبح جزءا من كياننا ، نرفض التخلى عنها فى إصرار شديد ، وعناء بلا حدود ، كما لو أنها أحد المبادئ الأخلاقية . أو التعاليم الدينية الصريحة ..

وقبل أن يتهمنى أحد بمهاجمة ورفض عمل المرأة ـ على الرغم من أننى أرفضه بالفعل ، فى فترة نمو الأطفال ، ينبغى أن أشير إلى أن مشكلات المرأة لا تقتصر على عملها فحسب ، فالنساء غير العاملات أيضا لهن مشكلاتهما ومشاكلهن ..

ولكنهن تشتركن فيها مع النساء العاملات أيضا ..

وربما كانت أشهر مشاكل النساء عامة ، هى شعورهن بأن الزواج هو نهاية المطاف ، وما دامت الفتاة قد تزوجت ، فلم يعد هناك ما يجبرها على الاهتمام بأناقتها وزينتها المنزلية ، ويكفى أنها تبذل جهدا كبيرا لتفعل هذا ، عندما تخرج فى زيارة للأقارب أو الجيران ..

ثم أنها لا تفصح عن مشاعرها إلا نادرا ..

لقد تعلمت منذ حداثتها أنه من العيب أن تصرح

الفتاة أو المرأة بمشاعرها ، حتى لزوجها ..

وهكذا يصبح الجفاف العاطفى جزءا من تكوينها ..

وينعكس هذا بالطبع على علاقتها بزوجها ..

وحتى بأطفالها ..

ومع مرور الوقت ، يصاب الزوج بعدوى الجفاف ، فيتوقف عن مغازلة زوجته ، أو يصاب بالخرس المنزلى ، طوال فترة وجوده فى المنزل ..

وهنا فقط ترفض المرأة الجفاف العاطفى ، وتثور عليه ..

ولكنها لا تفصح عن السبب الحقيقى لثورتها قط ..

وهكذا يعيش زوجها فى حيرة كبيرة ..

لقد أصبحت زوجته عصبية ، عنيفة ، شرسة ، على الرغم من أنه لم يفعل شيئا ..

وهو لا ينتبه أبدا إلى أن هذا هو السبب الفعلى ..

أنه لم يفعل شيئا ..

وهذه ليست المشكلة الوحيدة للنساء غير العاملات ..

هناك أيضا الـ .....

ولكن مهلا ..

لا شك فى أنكم تتصورون الآن أننى عدو للمرأة ، ما دمت أفرد كل هذه الصفحات للحديث حول المشكلات التى تصنعها ، والمتاعب التى تنشأ بسببها ..

ولكن هذا هو الفصل الأول من الكتاب فحسب ..

الفصل الذى نوضح فيه أن المرأة مشكلة ..

وتتبقى الفصول التالية ، التى نشرح فيها كيف أن المرأة لم تنشأ كمشكلة بالفطرة ..

لقد صنعها الرجل ..

كل رجل ..

* * *

يتبع ، فى الكتاب القادم بإذن الله

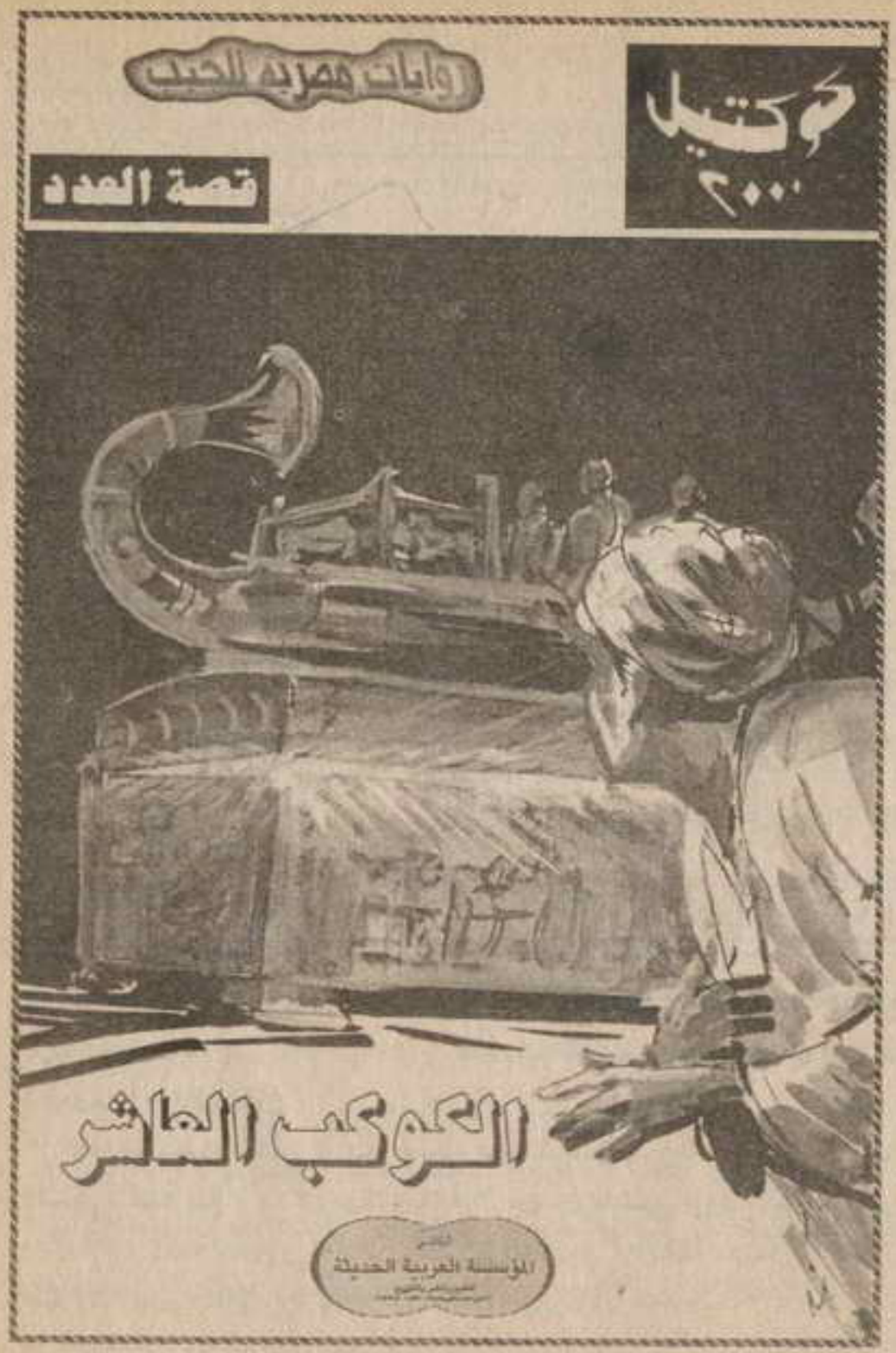

١ـ الزائـــر ..

• الفضاء الخارجى ..

• مكان ما بين كوكبى المريخ(*) والمشترى(**) ..

• عام ١٥٥٠ ق . م .(***) بتوقيت كوكب الأرض ..

انتشرت أبخرة وردية خفيفة ، فى الغلاف الجوى لكوكب (نيوتس) ، على نحو لم يعهده مناخ الكوكب من قبل ، وبدا سطحه مقفرًا على غير عهده ، حتى ليخيّل للناظر أنه كوكب مهجور ، لولا تلك القبة الزجاجية ، التى تحيط بما بدا كأطلال مدينة قديمة ، كانت يومًا دليلاً على حضارة راقية ، لم تصمد طويلاً أمام المتغيرات والعوامل الطبيعية القاسية ، التى أحاطت بالكوكب ، منذ ما يقرب من نصف قرن ، مع انهيار الطبقة الواقية لغلافه الجوى ..

(*) المريخ : رابع كواكب المجموعة الشمسية بعدًا عن الشمس ، كتلته (٠,١) من كتلة الأرض ، وكثافته (٠,٧٢) من كثافتها ، يقطع مساره فى (١,٨٨) سنة ، يحتوى جوه على ثانى أكسيد الكربون ، ولا يوجد به أكسجين أو بخار ماء ، تتراوح درجة حرارته ما بين ٨٠ ° ـ ١٢٠ ° ف تحت الصفر ، وللمريخ تابعان هما (ديموس) و (فوبوس) .

(**) المشترى : أكبر كواكب المجموعة الشمسية ، وخامسها بعدًا عن الشمس ، كتلته تبلغ (٣١٦) مرة من كتلة الأرض ، وتستغرق دورته حول الشمس (١١ , ٨٦) سنة ، ويدور حول محوره فى ٩ ساعات و ٥٥ دقيقة ، وله ١٢ قمرًا ، منها ثلاثة تدور عكسيًا ، ولا يفوقه فى اللمعان سوى كوكب الزهرة ..

(***) ق . م : قبل ميلاد المسيح .

وداخل تلك القبة الزجاجية ، لم يكن الحال بأفضل كثيرًا من خارجها ، فقد امتدّت المقابر لمسافة شاسعة ، وبدا العدد القليل من الأحياء ، من سكان الكوكب ، شاحبًا ممصوصًا ، بعد معاناة طويلة شاقة ..

وخلف نافذة أحد المبانى ، التى بقيت على حالها القديم ، وقف آخر رئيس لآخر مدينة على سطح الكوكب ، يتطلّع فى أسى إلى الخراب الذى أصاب كل شىء ، وهو يقول لقائد أمنه فى مرارة :

ـ لم يعد هناك أمل .. الأبخرة الوردية ، المتصاعدة من شقوق الأرض ، تتزايد فى سرعة ، وآخر تقارير العلماء تؤكد أن الكوكب سينفجر لا ريب ، خلال أسابيع معدودة .

وتنهّد فى حزن ، مستطردًا :

ـ من يصدّق هذا ؟.. لم يكن انفجار الكواكب فى شبابى سوى فكرة عجيبة ، فى روايات الخيال العلمى ، أما الآن فقد صار حقيقة واقعة ، ننتظر حدوثها بين ساعة وأخرى .

قال قائد الأمن فى احترام :

ـ كان ينبغى أن نصغى إلى العلماء ، عندما حذّروا من حدوث هذا ، منذ أكثر من نصف قرن .

هزّ الرئيس رأسه فى أسى ، وهو يجيب :

ـ كان أكبر خطأ ارتكبناه .. لقد سخرنا منهم ، وعزلناهم ، واتهمناهم بالتخريف والتشاؤم ، وها نحن أولاء ندفع الثمن الآن .

وأشار بيده إلى الخراب المحيط بالمكان من كل جانب ، مضيفًا :

ـ حضارات كوكبنا كلها أبيدت ، وكل الحلول فشلت فى إيقاف أو منع الكارثة . وانتشرت الأمراض والأوبئة ، وتساقط الشعب كالذباب ، ولم تعد لدينا طاقة كافية ، أو وسائل متطورة .. بل لم يعد هناك شعب قادر على الصمود والمقاومة .. الجميع ينهارون فى سرعة ، والقبة الزجاجية لم تنجح فى إنقاذنا .. إنها نهاية الكوكب بأكمله يا قائد الأمن .

عضّ قائد الأمن شفتيه ، قائلاً :

ـ آه لو كنا أنجزنا مشروع الفضاء .

مطّ الرئيس شفتيه ، قائلاً :

ـ فات أوان الندم .. لم يعد هناك ما يمكن فعله .. كوكبنا سينفجر كله بعد أسبوع أو أسبوعين على الأكثر ، بعد تفاعل أشعة الشمس مع الأبخرة الوردية ، والمواد المشعة فى تربتنا .

وتنهّد فى عمق ، وهو يصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى اهتمام مفاجئ :

ـ ولكن لدينا سفينة الفضاء التجريبية ..

خُيّل لقائد الأمن أنه فهم ما يعنيه الرئيس بهذا الاهتمام المفاجئ ، فقال فى حماس :

ـ هذا صحيح يا سيادة الرئيس .. يمكنك أن تستقل سفينة الفضاء التجريبية ، وتنطلق بها إلى أقرب كوكب يمكننا الحياة على سطحه .. إلى كوكب (لويند) .

ارتسمت ابتسامة حزينة على شفتى الرئيس ، وهو يلتفت إليه ، قائلاً :

ـ لم تفهمنى يا قائد الأمن .. لست أرغب فى مغادرة الكوكب ، أو العيش ككائن منفرد منبوذ ، على كوكب آخر ، يختلف عنا سكانه فى مظهرهم وطبيعتهم ، وحتى فى درجة تقدّمهم .

قال قائد الأمن فى انفعال :

ـ ولكنها فرصتك الوحيدة يا سيادة الرئيس ، فسفينة الفضاء التجريبية هى وسيلة الانتقال الوحيدة لدينا ، للسفر عبر الفضاء ، وهى لا تسع سوى راكب واحد ، وأنت أكثر شخص يمتلك الحق فى النجاة ، ثم إن سكان كوكب (لويند) لا يختلفون عنا كثيرًا ، سوى فى الحجم ولون البشرة ، ولقد راقبنا حضاراتهم طويلاً ، عبر أجهزة الرصد الفضائية ، وأعتقد أن من بينها حضارة خاصة ، يمكنها استقبالك ، وإكرام وفادتك ، بل واعتبارك أحد الآلهة الهابطة من السماء .

تنهّد الرئيس مرة أخرى ، وهزّ رأسه ، قائلاً :

ـ قلت لك : إنك لم تفهمنى يا قائد الأمن .. لست أسعى للنجاة ، بل إننى أعتقد أن انتهاء حياتى هنا ، هو الوسيلة الوحيدة للتكفير عن أنانيتى وصلفى ، اللذين تسببا فيما وصل إليه كوكبنا ، ولكن ما أفكر فيه هو حضارتنا .. تلك الحضارة التى نشأت وتطوّرت عبر آلاف السنين .. ربما يكون مصيرنا هو الفناء ، ولكن من العار أن تفنى كل هذه الحضارة .

سأله قائد الأمن فى حيرة :

ـ وكيف يمكن إنقاذها ؟

تطلّع إليه الرئيس لحظة فى صمت ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ بنقلها إلى كوكب (لويند) .

انعقد حاجبا قائد الأمن ، وهو يسأل :

ـ وكيف السبيل إلى هذا ؟

تطلّع إليه الرئيس لحظة أخرى فى صمت ، ثم تقدّم نحوه ، ووضع يده على كتفه فى حزم ، قائلا :

ـ سأسند إليك هذه المهمة يا قائد الأمن .

اتسعت عينا قائد الأمن ، وتراجع كالمصعوق ، وهو يهتف :

ـ أنا ؟ !

أجابه الرئيس فى حزم أكبر :

ـ نعم .. أنت يا قائد الأمن .. سنستغل الأيام الباقية فى حياة كوكبنا ، لننجز أعظم أعمالنا على الإطلاق .. سنضغط كل حضارتنا فى أسطوانات دقيقة ، وسنرسلك بها إلى كوكب (لويند) ، مع جهاز العرض الخاص بها ، وبلغة الحضارة التى اخترتها .

قال قائد الأمن فى دهشة متوترة :

ـ ولكن تلك الحضارة ، على الرغم من تقدمها ، بالنسبة لمثيلاتها على كوكب (لويند) ، لم تبلغ بعد الحد الكافى لفهم حضارتنا ، أو حتى لاستخدام أسطواناتنا الدقيقة ، وإدراك ما تحويه .

أشار الرئيس بسبّابته ، قائلاً :

ـ ربما ليس الآن ، ولكنهم سيتطوّرون حتمًا ، وسيبلغون يومًا الحد الكافى لفهم هويتنا ، وإدراك تأثيرها على تقدمهم ، وعندما يحدث هذا ، ستقفز بهم معلوماتنا لقرنين من التطوّر دفعة واحدة ،

وبهذا تكون حضارتنا قد أثمرت فى تطوير الحياة على الكوكب الوحيد بعدنا ، الذى يحوى مخلوقات عاقلة ، فى مجموعتنا الشمسية كلها .

صمت قائد الأمن بضع لحظات ، قبل أن يغمغم :

ـ سيّدى الرئيس .. أعترف أن الفكرة رائعة ، وتحمل الكثير من النبل والرقى ، ومن روح الفروسية ، التى اندثرت منذ قرون ، وكان اندثارها سببًا من أسباب ما وصلنا إليه ، ولكن الأمر ليس سهلاً كما تتصوّر ، فربما أتلفوا وثائقنا وأسطواناتنا ، قبل أن يبلغ بهم التطوّر الحد الكافى ، لفهم ما أهديناهم إياه .

أومأ الرئيس برأسه متفهّمًا ، وهو يقول :

ـ سنعمل على ألا يحدث هذا .. سنزوّدك بما يبهرهم ، ويدفعهم إلى احترام تعليماتك إلى أقصى حد .. اطمئن .

وأطلّ التأثّر من عينيه ، وهو يستطرد :

ـ المهم أن تبذل قصارى جهدك للقيام بالمهمة على أكمل وجه ، بحيث تنطلق بسفينة الفضاء التجريبية إلى كوكب (لويند) بأقصى سرعة ، قبل أن ينفجر كوكبنا ، ونفقد كل شىء .

وعاد يضع يده على كتفه ، مضيفًا بصوت متهدّج :

ـ وتذكر دائمًا أنك الأمل الأخير لحضارتنا .

اعتدل قائد الأمن ، وشدّ قامته ، وكأنه يعلن عزمه على القيام بالمهمة ..

حتى آخر رمق ..

* * *

• كوكب الأرض ..

• عام ١٥٥٠ ق . م ..

• فترة حكم الملك (أحمس)(*) ، وبدايات الأسرة الثامنة عشرة ..

تطلّع العرّاف الخاص بالملك (أحمس) إلى السماء ذات النجوم ، واتسعت عيناه عمدًا ، على نحو أضفى عليه مظهرًا مخيفًا ، وهو يلوّح بيده ، ، قائلا بصوته الضخم الفخم :

ـ ذلك الوميض الكبير ، الذى ظهر فى السماء منذ أسابيع ، ليس أمرًا عاديًا بالتأكيد يا مولاى العظيم .. إنه علامة على الرخاء الذى سيجرى على يديك ، على شعبك المخلص ، بعد انتصارك على (الهكسوس)(**) ، وعودتك إلى عرشك سالمًا .. ذلك الوميض الذى اشتعل ثم انطفأ ، هو الدليل على أن الآلهة راضية عما فعلت وتفعل لشعبك .

(*) أحمس : حكم (١٥٩٠ ـ ١٥٤٥ ق.م) : ملك (مصر) ، ومحررها من (الهكسوس) ، وواضع حجر الأساس لإمبراطورية مصرية ، امتدت شمالاً حتى أعالى الفرات ، وجنوبًا حتى الجندل الرابع ، شجّع أفراد الطبقة الوسطى ، وأنعم عليهم بأنواط الجدارة والشجاعة ، وسجّل لنفسه فخرًا كبيرًا فى التاريخ .

(**) الهكسوس : كلمة مصرية قديمة ، تعنى (حاكم البلاد الأجنبية) ، وهم غزاة آسيويون ، اجتاحوا مصر القديمة حوالى (١٧١٠ ق . م) ، وحكموها لمدة ١٥٠ عامًا (الأسرتان ١٥ ، ١٦) ، وكانت عاصمتهم (أواريس) فى الدلتا ، حاربهم المصريون بقيادة أمراء طيبة (سقنن رع) ، و (كامس) ، و (أحمس) ، ونجح الأخير فى تحرير البلاد من شرهم .

مطّ كاهن القصر شفتيه ، وهو يقول :

ـ ولكن هذا الوميض استغرق طويلا ، فما الذى يعنيه هذا ؟

لوّح العرّاف بذراعيه فى أسلوب تمثيلى مبتذل ، وهو يهتف :

ـ يعنى أن فترة حكم مولاى العظيم ستمتدّ إلى أمد طويل ، تحت رعاية الآلهة .

ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتى الملك (أحمس) ، وهو يقول :

ـ أحسنت أيها العرّاف .. أحسنت .

عاد الكاهن يمطّ شفتيه ، وكأنما لا يروق له ما يفعله العرّاف ، الذى برقت عيناه ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة ، وهو ينحنى أمام الملك ، حتى يكاد رأسه يضرب الأرضية الحجرية ، قائلا :

ـ أنا فى خدمة مولاى العظيم .

هزّ الملك (أحمس) رأسه فى ارتياح ، ثم رفع يده ، وهو يقول فى عظمة :

ـ وحتى يشعر شعبى بالرخاء ، الذى أحمله معى ، فأنا آمر بـ .....

بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه فى دهشة تمتزج بشىء من الارتياع ، وهو يحدّق فى السماء أمامه ، من شرفة قصره ، فى حين أضىء المكان كله بضوء مباغت قوى ، انعكس على وجوه الجميع ، وهم يحدقون فى كتلة من اللهب ، راحت تشقّ طريقها فى السماء ، متجهة نحو الأرض ..

ونحو قصر الملك (أحمس) بالتحديد ..

وفى انبهار يبلغ حد الذهول ، ران على الجميع صمت رهيب ، وكتلة اللهب تهبط وتهبط فى سرعة ، حتى اتضحت ملامحها ..

كانت عبارة عن جسم أسطوانى أحمر اللون ، له ثلاثة أجنحة ، فى شكل مثلث منتظم ، ويهبط بسرعة رهيبة نحو الأرض ، ومن أسفله تندلع ألسنة اللهب المخيفة ..

وأمام أعين الجميع ، هبط ذلك الجسم الأسطوانى ، على قيد أمتار قليلة من شرفة قصر الملك (أحمس) ، الذى كان أوّل من انتزع نفسه من ذهوله ، وهو يغمغم :

ـ ما هذا بالضبط ؟

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى انفتح جانب الجسم الأسطوانى ، على نحو مباغت ، انتفضت له أجساد الجميع ، وهتف العرّاف :

ـ يا للآلهة !

وشهق الكاهن فى عنف ، فى حين حدّق الملك وأتباعه ووزراؤه فى ذلك الكائن ، الذى برز من فتحة الجسم الأسطوانى ..

كان تكوينه العام لا يختلف أبدًا عن تكوين البشر ، ولكن بشرته كانت خضراء كلون حشائش الأرض ، وعيناه كانتا حمراوين ، مستديرتين ، وعلى قمة رأسه شعر أزرق داكن ..

وكان يرتدى زيًا فضيًا من قطعة واحدة ، وخوذة صغيرة شفافة ..

وفى هدوء ، خلع ذلك الكائن خوذته ، وهو يقول بلغة يفهمها الجميع ، على الرغم من ركاكتها :

ـ أنا (بى دو) قائد أمن كوكب (نيوتس) ، الذى انفجر منذ عدة أسابيع ، ومعى رسالة خاصة لملككم (أحمس) .

نطق عبارته ، فران بعدها صمت أكثر رهبة على المكان ، وقطعه الكاهن ، وهو ينحنى فى سرعة ، هاتفًا بصوت مرتجف :

ـ إنه مبعوث الآلهة إلى مولانا العظيم .

تردّدت العبارة على الألسن ، وتنقلت بين الآذان همسًا وجهرًا ، فى ثوان معدودة ، ثم سقط الجميع ينحنون أمام (بى دو) ، فيما عدا الملك (أحمس) ، الذى اتسعت عيناه بشدة ، وهو يحدّق فى ذلك المبعوث ، الذى هبط من السماء ، ليلتقى به شخصيًا ..

وبعد دقيقة من التردُّد ، نهض الملك (أحمس) ، وأشار بيده ، قائلاً :

ـ فليتقدّم مبعوث الآلهة .

شدّ (بىّ دو) قامته ، وتقدّم نحو الملك (أحمس) ، وقال :

ـ إننى أحمل لك هدية من كوكبى .

ورفع يده أمام الملك بكرة بيضاء ، مرّر يده فوقها ، ولمسها بطرف سبّابته ، فأضيئت فجأة بضوء مبهر ، شهق له الجميع ، واضطر معه الملك إلى إغلاق عينيه ، و (بى دو) يواصل :

ـ هذا المصباح يعمل بطاقة نادرة ، ولقد اشتعل الآن ، ولن ينطفئ قبل مليون سنة من سنوات كوكبكم (لويند) .

وأمام تلك الظاهرة المبهرة ، هتف الملك (أحمس) مرة أخرى :

ـ مرحبًا بمبعوث الآلهة .

ورفع يده أمام الملك بكرة بيضاء ، مرّر يده فوقها ، ولمسها بطرف سبّابته ،

فأضيئت فجأة بضوء مبهر ..

كان (بى دو) يهمّ بقول شىء ما ، عندما زاغت عيناه بغتة ، ولهث بشدة ، وهو يقول :

ـ عجبًا !.. كنا نتصوّر أن جو كوكبكم يناسبنا ، ولكن الواضح أن ...

لم يستطع إتمام عبارته من شدة لهاثه ، فأسرع يرتدى خوذته ثانية ، ويضغط عدة أزرار فى حزامه ، فانتظمت أنفاسه إلى حد ما ، وغمغم فى أسى واضح :

ـ لقد أخطأنا ثانية .. ويا له من خطأ !

تطلّع إليه الجميع فى حيرة مترقّبة ، فشدّ قامته ثانية ، وهو يقول للملك (أحمس) :

ـ لم يعد لدى وقت ، فليس لدى مخزون من الهواء إلا لساعة واحدة ، فلم أكن أتوقّع أن جوكم لا يناسب جهازى التنفسى قط .. أريد أن ألتقى بك وحدنا أيها الملك (أحمس) ، فأنا أحمل لك رسالة خاصة .

لم يفهم الجميع من حديثه سوى الجزء الأخير ، فالتفت الملك (أحمس) لحظة إلى مستشاريه ، قبل أن يجيب :

ـ على الرحب والسعة يا مبعوث الآلهة .

عاد (بى دو) إلى سفينته الفضائية ، والتقط منها علبة كبيرة شفّافة ، حملها وهو يتجه مع الملك إلى حيث يتم اجتماعهما الخاص ..

ولا أحد يدرى ما الذى دار فى ذلك الاجتماع بالضبط ..

لقد ظلاّ معًا لساعة كاملة أو يزيد ، وبعدها خرج الملك وحده ،

وهو يقول فى أسى واضح :

ـ مهمة مبعوث الآلهة انتهت ، وكذلك حياته ..

اتسعت العيون كلها فى دهشة وانبهار ، وامتلأت نفوسهم بالحيرة ، وحاول بعضهم سؤال الملك (أحمس) عما حدث فى ذلك الاجتماع المغلق ، إلا أنه لم يفصح عن هذا قط ..

كل ما فعله هو أن أمر بمعاملة جثة (بى دو) معاملة الملوك ، وتحنيطها(*) بأفضل الأساليب الممكنة ، وإقامة قداس جنائزى مناسب لها ..

وتم تنفيذ أوامر الملك بمنتهى الدقة ..

وبعد أربعين يومًا(**) بالتمام والكمال ، أقيمت جنازة فخمة كبيرة للكائن (بى دو) ، وتم وضعه داخل تابوت خاص ، ودفنه فى مقبرة ملكية ، مع أوان كانوبية(***) تحمل وجهه ، ووضع

(*) التحنيط : جزء من الطقوس الجنزية لقدماء المصريين ، وهى تبدأ باستخراج مخ الميت من دماغه ، عن طريق الأنف ، ثم شق البطن واستخراج أحشائه ، التى تحفظ فى أوان خاصة ، ويتم تطهير الجوف بالعطر والنبيذ ، ثم يحشى بالمر وغيره ، وبعد رأب الشق يوضع الجسد فى محلول النظرون ، للتخلُّص من رطوبته ، ثم يكفّن بلفائف الكتان .

(**) يتم الانتهاء من التحنيط بعد أربعين يومًا فى المعتاد .

(***) الأوانى الكانوبية : أعدّها المصرى لحفظ أحشاء الميت بعد تحنيطها ، وعددها أربع ، استعملت أيام الأسرة الخامسة ، وسميت هكذا نسبة إلى (أوزوريس كانوب) (أبو قير) واستمر استعمالها حتى آخر العصر الفرعونى ، وكان غطاء الآنية على هيئة رأس صاحبها بملامحه، منذ الأسرة الثامنة عشرة ، وحتى الثانية والعشرين .

معه كل ما حوته سفينة الفضاء التجريبية ، التى أتى بها إلى الأرض ، ثم أغلقت مقبرته فى إحكام ، ووضعت عليها حراسة مشدّدة ، لمنع اللصوص والمغامرين من نهبها ..

أما ذلك الصندوق الشفاف ، والمصباح الذى لا ينطفئ أبدا ، فقد تم وضعهما داخل صندوق كبير ، محكم الإغلاق ، ازدان بنقوش تروى القصة كلها ، وفوقه أقيم أروع نموذج عرفه التاريخ لمركب شمس(*) ..

وفى حزم واضح ، أصدر الملك (أحمس) أوامره بالحفاظ على الصندوق ونموذج مركب الشمس ، حتى تحين اللحظة المناسبة لفتحه ، وإخراج محتوياته ..

ولقد أصدر الملك (أحمس) أوامره بهذا ، وفاءً لوعد قطعه على نفسه ، أمام (بى دو) ، وإن كان يجهل متى يمكن أن تحين تلك اللحظة المناسبة ..

يجهل هذا تمامًا .

* * *

(*) مراكب الشمس : عندما راقب المصريون القدماء حركة الشمس ، من الشرق إلى الغرب ، تصوّروا أن هذا لا يمكن أن يتمّ إلى على زورق من ذهب ، يمخر بها عالم الظلام إلى عالم النور ، وربطوا هذا بنيلهم ، وتصوّروا أنه لا يمكن عبوره ، وإقناعه بفيض خيره إلا بوساطة مركب يشبه ذلك الذى تستخدمه الشمس فى الشروق والغروب ، فصنعوا نماذج لها من الخشب والحبال .

٢ـ اللغز ..

• النوبة ..

• شتاء عام ١٩٥٩ م ..

ارتدى الحاج (جمال) ، كبير النوبيين(*) جلبابه الأبيض النظيف ، بعد عودته من حقله ، مع غروب الشمس ، وخرج يستنشق الهواء النقى ، فى تلك الفترة من السنة ، وهتف ينادى ابنه البكر (محمد) ، قائلا :

ـ قل لأمك أن تعد لنا أقداح الكركديه(**)، فالرجال على وشك الوصول ..

كان يستعد لاستقبال رجال القرية ، الذين اعتادوا قضاء أمسياتهم فى الساحة الكبيرة أمام داره ، لمناقشة أمورهم ، وعرض مشكلاتهم عليه ، بصفته كبيرهم ، وأكثرهم حكمة ووقارا ، ورجاحة عقل .

وكعادته ، حمل وجهه الأسمر الكلثومى(***) ابتسامة عذبة

(*) النوبة : منطقة بوادى النيل (بمصر) و (السودان) ، تمتد من (أسوان) إلى (دنقلة) يتكلم سكانها لغة خاصة بهم ، إلى جوار العربية ، شيد فيها الفراعنة كثيرا من المدن والحصون والمعابد ، لتأمين طرق التجارة إلى (السودان) ، والدروب الموصلة إلى المناجم فى الصحراء ..

(**) نبات اسمه العلمى (هيبكس سبداريفا) ، من الفصيلة الخبازية ، الأوراق كاملة أو مقصصة ، والأزهار أبطية كبيرة ، والثمرة عليه تشبه لوزة القطن ، ويتخذ من منقوعه أو مغلى الأوراق المجففة شراب لونه أحمر أرجوانى ، يدخل فى صناعة النبيذ ، وتكوين بعض المواد ، مثل طلاء الشفاة .

(***) الكلثوم هو الوجه الممتلئ .

مشرقة ، ما إن يقع بصرك عليها ، حتى تقع فى هواه على الفور ..

وفى هدوء ، جلس الحاج (جمال) على مصطبة من مصاطب الساحة ، يراقب غروب الشمس ، ليؤدى صلاة المغرب ، ويهب لاستقبال الرجال ، و ...

« يا حاج (جمال) ..

يا حاج (جمال) .. »

قطع الصياح تسلسل أفكاره ، وانتزعه من نشوته الدائمة ، وهو يشاهد غروب الشمس ، فانتفض فى مجلسه ، وهتف :

ـ ماذا هناك ؟.. ماذا حدث ؟!

وقع بصره على عدد من شباب القرية ، يهرعون إليه فى انفعال واضح ، فهب لاستقبالهم ، وهو يسأل مجددا :

ـ ماذا حدث يا شباب ؟

أجابه أحدهم ، وهو يشير إلى الجبل القريب :

ـ غريب يا حاج (جمال) .. غريب دخل القرية .

هتف الرجل فى دهشة :

ـ غريب ؟!..

ثم اندفع خلف الشبان ، يعبر شوارع القرية المنتظمة

المستقيمة ، حتى فوجئ أمامه برجل أحمر الوجه ، أشقر الشعر ، أزرق العينين ، يبدو من هيئته وثيابه الرثة أنه خاض أهوالاً ، قبل أن يصل إلى القرية ، وخاصة مع قدميه المتورمتين ، اللتين يجرهما خلفه جرًا ، وشفتيه المتشققتين ، وهو يغمغم بصوت مبحوح مشروخ ، ولكنته أجنبية واضحة :

ـ ماء .. أريد جرعة ماء .

قالها ، وتهاوى جسده كله دفعة واحدة ، فقفز الحاج (جمال) يلتقطه بين ذراعيه ، وهو يهتف :

ـ أحضروا الماء بسرعة .

تعاون معه بعض شباب القرية ، فى حمل الرجل إلى الساحة ، فى حين أسرع البعض الآخر يحضر الماء ، وهمّ بسقى الرجل ، ولكن الحاج (جمال) أشار إليه ، قائلاً :

ـ بلل شفتيه فحسب .. لو شرب الماء دفعة واحدة ستتأذى معدته كثيرًا .

استقبل الرجل قطرات الماء ، التى تبلل شفتيه ، فى لهفة شديدة ، وحاول اختطاف الوعاء من الشاب الذى يسقيه ، وإفراغه كله فى جوفه ، ولكن الحاج (جمال) ربت عليه مهدئًا ، وهو يقول :

ـ مهلاً يا رجل .. مهلاً .. تماسك قليلاً ، وسنسقيك الماء كله .

التفت إليه الرجل بعينين زائغتين ، وهو يقول بالإنجليزية ، فى لهجة أمريكية خالصة :

ـ لقد .. لقد رأيتها .

كانت معرفة الحاج (جمال) بالأمريكية محدودة ، ولكنه فهم ما يعنيه الرجل ، فسأله فى حيرة :

ـ رأيت ماذا ؟

ارتجفت سبابة الرجل ، وهو يشير بها ، قائلاً فى تهالك :

ـ الشمس .. رأيت الشمس تشرق فى قلب الصندوق القديم .. رأيت الـ ...

كان هذا آخر ما فهمه الحاج (جمال) من كلمات الرجل ، الذى اندفع يتحدث ويتحدث فى حرارة ، وبكلمات مضطربة ، تضاعفت معها صعوبة تفسيرها ، وعيناه تتسعان وتتسعان فى ذعر ، ثم لم يلبث أن أخذ يلهث ، ويلهث ، فانعقد حاجبا الحاج (جمال) فى قلق ، وهو يقول :

ـ رويدك يا رجل .. حالتك لا تحتمل كل هذا الانفعال .

امتقع وجه الرجل فى شدة ، ولكنه لم يتوقف عن الحديث ، ودسّ يده فى جيب سترته الممزقة ، وأخرج رقعة من الجلد ، مدّ بها يده إلى الحاج (جمال) ، وهى ترتجف فى شدة ، فالتقط الحاج رقعة الجلد ، وهو يقول :

ـ حسنا .. حسنا .. سأحتفظ بها ، ولكن اهدأ .. حالتك تتدهور بشدة ، بسبب انفعالاتك الجارفة هذه ..

ازدرد الرجل لعابه فى صعوبة ، فأسرع الحاج يبلل شفتيه ، ويصب بينهما بضع قطرات من الماء ، تلقفها الرجل فى لهفة ، قبل أن يقول بعينين زائغتين :

ـ الشمس .. عرفت موضع شمس (أحمس) .

ردد الحاج فى دهشة :

ـ (أحمس) ؟!

ولم يكد ينطقها ، حتى أطلق الرجل شهقة عنيفة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، ثم انهار فجأة ، وفاضت روحه من جسده ..

وبذل الحاج (جمال) وشباب القرية قصارى جهدهم ، فى محاولة لإسعاف الرجل أو إنقاذه ، ثم تبيّن لهم أنه لقى مصرعه بالفعل ، ولم يعد هناك ما يمكنهم فعله من أجله ، فخفض الحاج (جمال) عينيه فى أسى ، وهو يقول :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .. وماتدرى نفس بأى أرض تموت ..

هيا يا شباب .. سنبلغ أقرب نقطة شرطة ، ونخلى مسئوليتنا من الموقف كله .

تطوّع بعض الشبّان للذهاب إلى نقطة الشرطة ، فى حين تطلّع الحاج (جمال) إلى الرقعة الجلدية التى أعطاه إياها الرجل قبل موته ، والتى حوت بعض الأرقام والرموز باللغة الإنجليزية ، وتساءل فى حيرة : لماذا كان اهتمامه الشديد بها ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ..

وعلى الرغم من أنه راجع الرموز أكثر من عشر مرات ، فقد بدا له الأمر أشبه بلغز ..

لغز غامض ..

* * *

• القاهرة ..

• صيف ١٩٩٠ م ..

أطلق الرسّام الصحفى (أحمد ضرغام) زفرة حارة ، من أعمق أعماق قلبه ، وهو يلقى ريشته على سطح مكتبه ، ويتراجع بمقعده فى حنق ، متطلعا إلى جهاز تكييف الهواء القديم فى حجرته ، قائلا :

ـ كنت أتوقّع منك هذه النذالة ، فحرارة الجو تتجاوز الأربعين درجة مئوية ، وأنت تختار هذا اليوم بالذات لتتوقّف عن العمل .

ثم التقط سمّاعة الهاتف الداخلى للمجلة ، وقال فى غضب :

ـ أين عامل قسم الصيانة ؟!.. إننى أتصل به منذ ساعة كاملة ، لإصلاح جهاز التكييف ، ولم يأت حتى الآن !

أحنقه أن يسمع بعض التبريرات التقليدية السخيفة ، ردّا على سؤاله ، فأنهى الاتصال فى حنق ، دون أن يكرّر مطلبه ، وزفر مرة أخرى فى سخط ، وهو يستعيد أحداث يومه المرهق ، منذ فتح عينيه فى الصباح الباكر .

لقد استقبله ، أوّل ما استقبله ، انقطاع المياه فى المنزل ، بسبب بعض الإصلاحات التى تجرى فى المنطقة ، فغضب وثار ، لأن أحدًا لم يهتمّ بالتنبيه على السكان ، ليدخروا احتياجاتهم من

الماء قبل انقطاعه ، ثم لم يلبث أن أدرك عدم جدوى ثورته ، فاستخدم زجاجة من زجاجات الماء البارد فى البراد ، لغسيل وجهه ، وإعداد قدح من الشاى ، ثم هبط ليستقل سيارته ، إلا أنها فاجأته بأن بطاريتها قد استغرقت فى سبات عميق ، ورفضت النهوض منه ، على الرغم من تعاون بعض المارة معه فى دفع السيارة ، مما اضطره إلى أن يستقل واحدة من سيارات الأجرة ، للوصول إلى المجلة ، ولكن السائق اتخذ مسارا طويلا ، لينهى بعض أعماله الشخصية ، فوصل إلى المجلة متأخرا ، واحتمل فى حنق تأنيب رئيس القسم الفنى له ، وتذكيره إياه بأنه من المفترض أن يتم تسليم عدد المجلة إلى المطبعة فى المساء ، وأنه لم ينته من لوحة الغلاف بعد ..

وعندما صعد إلى مكتبه ، ليضع اللمسات الأخيرة للوحة ، توقف جهاز تكييف الهواء عن العمل ، وأصبحت الحجرة أشبه بفرن صغير لا يطاق ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد أنهى لوحة الغلاف ، واتصل بسكرتير التحرير ، ليرسل من يتسلمها ، ثم أخذ يجمع حاجياته ، وقد قرر الذهاب على الفور إلى النادى ، والغوص فى حوض السباحة ، حتى غروب الشمس ..

وبينما انهمك فى وضع أشيائه فى حقيبته ، سمع طرقا على باب مكتبه ، فقال دون أن يلتفت إليه :

ـ ادخل .

سمع صوت الباب يفتح ، ووقع أقدام تدلف إلى الحجرة ، فقال بسرعة :

ـ اللوحة على المكتب يا عم (حسن) .. اذهب بها إلى الأستاذ (فريد) ، وقل له :

إن الخلفية تحتاج إلى خمسين فى المائة أزرق صرف ، و ...

قاطعه صوت ضاحك ، يقول :

ـ لست عم (حسن) يا أستاذ (أحمد) .

التفت فى سرعة إلى مصدر الصوت الأنثوى الرقيق ، ووقع بصره على زميلته (ليلى) ، التى يميل إليها كثيرا ، وبصحبتها رجل أسمر البشرة ، ممتلئ الوجه ، على الرغم من نحول جسده الواضح ، يرتدى حلة قديمة ، بدا من الواضح أنه يحرص على تنظيفها والعناية بها جيدا ، وقميصا ناصع البياض ، بدأت أطراف ياقته فى التآكل على نحو ما ..

ولثانية أو ثانيتين ، ظل (أحمد) يحدق فى الرجل والفتاة ، التى خفتت ابتسامتها ، وهى تقول فى شىء من القلق :

ـ هل أزعجك حضورنا ، دون موعد سابق ؟

هتف فى حرارة :

ـ مطلقا .

وأسرع يجذب مقعدا ، ويدعوها إلى الجلوس ، مستطردا :

ـ المكتب يزداد بهاء ، كلما شرفته بزيارتك .

استعادت ابتسامتها العذبة ، وهى تقول فى مرح :

ـ آه .. مجامل أنت دائما .

ثم قدمت له الأسمر ، مستطردة :

ـ الأستاذ (نجيب صديق) من النوبة .

صافحه فى حرارة ، مجاملة لها ، ودعاه إلى الجلوس بدوره ، وهو يتطلع إليها متسائلا ، فأكملت بابتسامة كبيرة :

ـ الأستاذ (نجيب) طلب مقابلتك بالتحديد ، لأمر يخص العمل .

سأل فى دهشة :

ـ أى عمل ؟!

هزت كتفيها ، مجيبة :

ـ ليست لدى أدنى فكرة .. هو سيخبرك .

استدار (أحمد) إلى النوبى بنظرة متسائلة ، فتنحنح هذا الأخير فى حرج ، وقال فى لهجة مهذبة للغاية :

ـ إنه أمر يتعلق برسم بعض الآثار .. احم .. قطعة واحدة من الآثار بالتحديد .

ساوره الشك ، وهو يغمغم :

ـ قطعة واحدة من الآثار ؟!

ثم صمت لحظة ، تطلع خلالها إلى وجه النوبى ، الذى بدا له بسيطا مباشرا ، على الرغم من ارتباكه الواضح ، فسأله فى اهتمام :

ـ ولماذا أنا بالتحديد ؟

ازدرد النوبى لعابه ، فى محاولة للسيطرة على خجله وارتباكه ، قبل أن يجيب :

ـ العدد قبل السابق من المجلة ، كان يحوى موضوعا عن الآثار المصرية القديمة ، زينته أنت ببعض الرسوم الدقيقة الجميلة ، التى جذبت انتباهنا بشدة ، فوجدنا معها أنك الشخص المناسب لما ننشده بالضبط .

ردد فى حيرة قلقة :

ـ لماذا تنشدونه ؟!

ارتبك النوبى أكثر ، وهو يقول :

ـ نعم .. أنا وأصدقائى .. إننا من المهتمين بالآثار .

لم يدر لماذا راودته الشكوك بشدة فى هذا الموقف كله ، فتراجع فى مقعده ، وهو يقول فى شىء من الحزم :

ـ أستاذ (نجيب) .. الواقع أننى ..

قاطعه النوبى فى سرعة :

ـ خمسة آلاف جنيه ..

ارتفع حاجبا (ليلى) فى دهشة ، فى حين اعتدل هو فى حركة حادة ، هاتفا :

ـ ماذا ؟!

أجاب النوبى فى سرعة ، وكأنما يخشى لو توقف ألا يستطيع مواصلة الحديث مرة أخرى :

ـ سندفع لك خمسة آلاف جنيه ، إلى جانب الإقامة الكاملة ، مقابل الرسوم المطلوبة .

أطلقت (ليلى) صفيرا طويلا ، ثم أكملته بضحكة مرحة ، وهى تقول :

ـ أعتقد أنها صفقة رابحة يا (أحمد) .

كانت كذلك بالفعل ، إلا أنه لم يستطع مقاومة موجة الشك فى أعماقه ، التى تساءلت فى قلق : ما الذى يدفع شابًا مثله ، إلى دفع مبلغ ضخم كهذا ، مقابل بعض الرسوم البسيطة ، على الرغم من أنه يبدو كشخص محدود الدخل رقيق الحال ؟!..

ثم أية آثار تلك التى يرغب فى الحصول على رسم لها ؟!..

ولماذا ؟!..

ثم اعترف لنفسه بأن إغراء المبلغ يفوق كل شكوكه وقلقه ، فتنهّد فى عمق ، ومدّ يده يصافح النوبى ، قائلاً :

ـ اتفقنا يا أستاذ (نجيب) .

تهلّلت أسارير النوبى ، وشدّ على يده فى حرارة ، قائلاً :

ـ أشكرك يا أستاذ (أحمد) .. أشكرك كثيرًا .

ثم استطرد فى لهفة :

ـ هل يمكننا الرحيل خلال ساعة ؟

هتف فى دهشة :

ـ ساعة واحدة ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول فى لهفة :

ـ نعم يا أستاذ (أحمد) ، فطائرة (أسوان) ستقلع بعد ساعة واحدة ، وعندما نصل إلى هناك ، سيكون علينا أن نستقل واحدة من سيارات الأجرة إلى قريتى ، وهذا يعنى أننا سنصل إليها مع الغروب بإذن الله .

عاد القلق يملأ نفسه ، وهو يسأله :

ـ هل تريدون الرسوم بهذه السرعة ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، وازدرد لعابه فى صعوبة ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فغمغم (أحمد) :

ـ فى هذه الحالة لا بأس .

تهلّلت أساريره مرة أخرى ، وهو يعود للشد على يده ، قائلاً :

ـ سنلتقى بعد ساعة واحدة فى المطار إذن .

وأسرع يغادر المكتب ، فابتسمت (ليلى) ، قائلة :

ـ أهنئك .. لو أننى فى موضعك لما خسرت صفقة كهذه أبدًا .

حاول أن يبتسم لعبارتها ، إلا أنه عجز حتى عن مجاملتها ، وعقله يدرس الأمر مرة أخرى ، ويتساءل عما يعنيه هذا اللغز !..

ولكن عقله لم يتوصّل إلى جواب ..

أى جواب ..

* * *

على الرغم من أن الرحلة بالطائرة لم تستغرق أكثر من ساعات محدودة ، من (القاهرة) إلى (أسوان) ، إلا أن الرحلة بالسيارة ، من (أسوان) إلى تلك القرية النوبية ، استغرق أضعاف هذا الوقت ، حتى أن (أحمد) شعر بإرهاق شديد ، وكاد يلعن تلك اللحظة ، التى وافق فيها على هذا العمل ، ولم يحتمل الاحتفاظ بشعوره هذا فى أعماقه ، فهتف محنقًا :

ـ متى نصل إلى القرية ؟.. غدًا مساءً ..

ابتسم النوبى ، وهو يجيب بأسلوبه الشديد التهذيب :

ـ بل سنصل بعد دقائق محدودة .. اطمئن .

ابتلع (أحمد) غضبه وحنقه ، وعقد ساعديه أمام صدره ، وهو يزفر فى سخط ، حتى لاحت أضواء القرية من بعيد ، والسيارة تتجه نحوها ، مع مغيب الشمس ..

وارتفع حاجبا (أحمد) فى دهشة ، والسيارة تدلف إلى القرية ..

لقد كانت واحدة من القرى القليلة ، التى لم يدخلها التيار الكهربى بعد ، والتى مازالت تعتمد فى الإضاءة على المشاعل ، والمصابيح الزيتية القديمة ، وعلى الرغم من هذا فقد كانت منازلها نظيفة ، وطرقاتها شبه ممهدة ، بأحجار تم صفها بعناية ، كما انتشرت الأشجار والمزروعات فى كل مكان ، على نحو أضفى على المكان جمالا وأناقة من طراز خاص ..

وفى لهجة تحمل كل الفخر والزهو ، قال النوبى :

ـ هذه قريتى .

لاحظ (أحمد) أن شباب القرية قد وقفوا أمام منازلهم على الجانبين ، وكأنهم لجنة استقبال خاصة ، لم ينبس أى من أفرادها ببنت شفة ، والسيارة تمرق بينهم فى سرعة ، متجهة إلى ساحة كبيرة ، وقف فيها عدد من شيوخ ورجال القرية ، على رأسهم شيخ وقور ، هادئ الملامح ، أشيب الشعر ، ممتلئ الوجه ، يرفل فى جلباب ناصع البياض ، ويشع من عينيه بريق واضح ، يشف عن ذكاء بلا حدود ..

وأمام ذلك الوقور مباشرة ، توقفت السيارة ، فأسرع (نجيب) يغادرها ، ويتجه نحو الشيخ ، قائلا فى احترام شديد :

ـ لقد أحضرته يا حاج .

ابتسم الحاج ابتسامة هادئة عذبة ، وهو يربت على كتفه ، ثم التفت إلى (أحمد) ، الذى غادر السيارة ، وقال له فى هدوء وقور :

ـ أهلا بك بيننا يا ولدى .

شعر (أحمد) بمهابة الرجل تتسلل إلى أعماقه ، فتقدم منه يصافحه ، قائلا :

ـ أشكرك يا والدى .. أشكرك .

منحه الحاج نفس الابتسامة العذبة ، وقال :

ـ هيا بنا .. أظنك فى حاجة إلى قسط من الراحة ، بعد رحلتك الطويلة ..

قاده إلى منزله ، مع عدد من رجال القرية ، وسرعان ما امتدت موائد عامرة بالطعام والشراب ، فأكل (أحمد) حتى ملأ معدته ، وشرب حتى ارتوى ، ثم جاءت أقداح الشاى ، فراح يرتشف قدحه فى بطء ، وهو يسأل الحاج :

ـ قل يا حاج : ما تلك الآثار ، التى تريدون رسمها بالضبط ؟

صمت الرجال جميعًا ، عندما ألقى سؤاله ، وران على المكان صمت رهيب ، حتى خُيِّل إليه أن عبارته حملت شيئا من السباب أو الإهانة ، فتمتم قاطعًا ذلك الصمت :

ـ هل أخطأت بسؤالى ؟

ابتسم الحاج ، وهو يجيب :

ـ مطلقًا يا ولدى .. مطلقًا .

اندفع أحد الرجال يقول شيئا ما ، بلغة النوبيين ، التى لا يفهمها سواهم ، وأضاف رجل آخر عبارة أو عبارتين إلى حديث زميله ، فانعقد حاجبا الحاج فى صرامة ، وزجرهما بعبارة حملت لهجة صارمة ، قبل أن يلتفت إلى (أحمد) ، قائلا :

ـ هل تحب رؤية ما سترسمه الآن ، أم أنك تفضل أن تحظى بقدر من النوم والراحة أولا ، ثم تراه فى الصباح ؟

تنهد (أحمد) ، وهو يجيب :

ـ لست أعتقد أن الفضول سيمنحنى دقيقة واحدة ، أنعم خلالها بالنوم ، لو انتظرنا حتى الصباح .

ابتسم الحاج ، وهو يقول فى رصانة :

ـ كنت أتوقع هذا .

ثم تلاشت ابتسامته ، وهو يضيف فى حزم :

ـ ولكن هذا الأمر سيجشمك بعض المشقة .

أجابه (أحمد) فى حماس :

ـ أنا لها .

صمت الحاج بضع لحظات ، ثم قال فى رصانة حازمة :

ـ لا بأس .. سنذهب على بركة الله .

لم يكد ينطقها ، حتى أخرج أحد الحاضرين من جيبه عصابة

سوداء ، واستعد ليخفى بها عينى (أحمد) ، الذى هتف منزعجا :

ـ ما هذا ؟!.. ماذا ستفعل يا رجل ؟

أجابه الحاج :

ـ اطمئن يا ولدى .. إنه إجراء وقائى فحسب .. لا تقلق ، ولكن من الضرورى أن تعصب عينيك .. ثق بنا .

تردد (أحمد) لحظة ، ثم سمح لهم بتعصيب عينيه ، وبعدها تركهم يقودونه عبر دروب عجيبة ، فتارة يصعدون ، وتارة يهبطون ، ويتسلقون الصخور مرة ، ثم ينحدرون عليها مرة أخرى ، ويسيرون على أرض ممهدة لبضع دقائق ، ثم يمتلئ دربهم بعدها بالحصى والأحجار ، حتى يصبح الانتقال من خطوة إلى أخرى أمرا عسيرا شاقا ..

ولثوان ، جال بخاطر (أحمد) أنهم يصطحبونه إلى مكان ما للتخلص منه ، ثم لم يلبث أن طرح الفكرة جانبا ، وهو يقنع نفسه بأنهم لم يكونوا فى حاجة إلى كل هذا ، فلو قتلوه داخل قريتهم ، لما شعر بهم مخلوق واحد ..

وأخيرا ، انتهت الرحلة ..

وفى هدوء ، قال الحاج :

ـ وصلنا يا ولدى .. يمكنك رفع العصابة عن عينيك ..

أزاح (أحمد) العصابة عن عينيه فى لهفة ، فبهره ضوء المشاعل التى يحملها الرجال للوهلة الأولى ، ثم لم تلبث عيناه أن اعتادتا الضوء ، فاتضحت له معالم المكان الذى يقف فيه ..

وهنا اتسعت عيناه فى انبهار كامل ..

فقد كان ما يراه أمامه مدهشا ..

مدهشا بحق .

* * *

٣- بردية (أحمس) ..

لم تكن عقارب الساعة قد تجاوزت السابعة والنصف صباحًا بعد ، عندما ظهرت سيارة عالم الآثار الأمريكي (جون بيشوب) ، وهي تنطلق فوق رمال الصحراء ، في طريقها إلى موقع التنقيب ، على بعد كيلومترين فحسب من مدينة (أسوان) ، ولم تمض دقائق معدودة ، حتى توقفت سيارته (الجيب) عند موقع الحفر ، وقفز هو منها في نشاط ، على الرغم من سنوات عمره ، الذي تجاوز الخامسة والخمسين بشهر وبضعة أيام ، واتجه نحو العمال ، الذين بدءوا عملهم كالمعتاد ، مع مطلع الشمس ، تحاشيًا لارتفاع درجات الحرارة الشديدة ، مع انتصاف النهار ، وسأل رئيسهم في اهتمام بالغ :

- هل عثرتم على شيء ما اليوم ؟

هزّ رئيس العمّال رأسه نفيًا ، وهو يجيب بالإنجليزية :

- ليس بعد يا دكتور (بيشوب) .. المصطبة الحجرية ، التي عثرنا عليها أمس ، لم تكن سوى مقبرة لم تكتمل ، والدكتور (فؤاد) قال : إنها لا تساوي شيئًا .

سأله (بيشوب) في اهتمام :

- ألم يكن بها نقوش ؟

عاد رئيس العمال يهزّ رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

- مطلقًا .

مطّ الأمريكي شفتيه في ضيق ، وزفر في توتر ، وهو يدسّ

كفيه في جيبي سرواله القصير ، ويسير فوق الرمال شاردًا ، وعيناه تحدقان في اللامكان ، حتى سمع صوت عالم الآثار المصري الدكتور (فؤاد) ، وهو يقول :

- صباح الخير يا دكتور (بيشوب) .. معذرة لأنني لم أحضر لاستقبالك على الفور ، فقد كنت منهمكًا في دراسة بعض الخرائط القديمة في خيمتي .

التفت إليه (بيشوب) ، مغمغمًا في شرود :

- لا بأس .. لا بأس .

ثم سأله في اهتمام :

- ألم ترشدك تلك المصطبة الفرعونية ، التي عثرنا عليها أمس ، إلى أي شيء ، يمكن أن يقودنا إلى نموذج مركب الشمس ؟

هزّ الدكتور (فؤاد) رأسه نفيًا ، وقال :

- إنها ليست مصطبة مكتملة ، بل مجرّد باب مقبرة لم يكتمل .. أنت تعرف أن هذه المنطقة كانت أحد المحاجر ، التي اعتمد عليها قدماء المصريين ، للحصول على أحجار المقابر والبناء .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف في تردّد :

- ثم إنني لا أثق كثيرًا بوجود ذلك النموذج ، الذي تتحدث عنه .

قال (بيشوب) في حدة :

- بل هو موجود .. أنا واثق من هذا .. ربما لا يكون هنا ، ولكنه موجود حتمًا في مكان آخر .

هزّ الدكتور (فؤاد) رأسه ، قائلاً :

ـ لست أقصد وجوده هنا ، وإنما أعنى وجوده على الإطلاق .. إننى لم أقرأ أو أسمع فى حياتى عن نموذج لمركب من مراكب الشمس ، مصنوع من الخشب والذهب ، ومرصّع بالأحجار الكريمة ، وقاعدته عبارة عن صندوق مغلق ، من وضع فى رأسك أن مثل هذا الشىء موجود ؟

هتف (بيشوب) فى غضب :

ـ إنه موجود .. بردية (أحمس) تؤكّد أنه موجود .

مطّ الدكتور (فؤاد) شفتيه ، وهو يقول :

ـ حتى بردية (أحمس) هذه لم أسمع عن وجودها قط .

قال (بيشوب) فى انفعال :

ـ ولكننى رأيتها بنفسى ، فى قسم الوثائق السرية ، فى المتحف البريطانى .. إنها واحدة من أكثر البرديات ندرة فى العالم .. لقد أملاها (أحمس) بنفسه على كاتبه الخاص ، ليصف فيها حادثة فريدة من نوعها ، تقول : إن مبعوثًا إلهيًا هبط من السماء ، ومنح

(أحمس) صندوقًا يحوى كل أسرار الكون ، وشمسًا لا تنطفئ أبدًا ، وبعدها مات ، ووضع (أحمس) صندوق الأسرار والشمس الصغيرة فى صندوق ، يزيّن غطاءه نموذج لمركب من مراكب الشمس ، مصنوع من الخشب والذهب ، ومرصّع بالأحجار الكريمة ، إشارة إلى أن ذلك المبعوث جاء من وراء الشمس ، ورافقها فى رحلتها من الشرق إلى الغرب ، ثم أحضر قطعة منها إلى الأرض .

ابتسم الدكتور (فؤاد) ، وهو يقول :

ـ ألا تبدو لك القصة خيالية أكثر مما ينبغى ؟!.. من الواضح أنها مجرّد قصة رمزية ، تشير إلى أن الآلهة كانت راضية عن انتصارات (أحمس) ، وتبارك كل خطوة من خطواته ، وليس من الضرورى أن تكون الأحداث واقعية كما تتصوّر .. ثم لماذا لم نجد أى أثر لهذه القصة ، على جدران المعابد ، أو المقابر ، أو حتى فى برديات أخرى ؟

أجابه (بيشوب) فى انفعال :

ـ لأنه كان من المحظور تداولها ، طوال عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وبعدها نسيها الكل ، ولم يعد هناك من يذكرها ، أو يشير إليها ، ولولا بردية (أحمس) لما شعرنا بوجودها .

هزّ الدكتور (فؤاد) رأسه بعدم اقتناع ، وهو يقول :

ـ مازلت أعجز عن تصديق هذا أو الاقتناع به ؛ فأنت تعلم أن القصة ذات المصدر الواحد لا يعتدّ بها كثيرًا فى عالم التنقيب عن الآثار .

شذ (بيشوب) قامته فى عناء ، وهو يقول :

ـ ولكن لدى ما يدعّم قصتى .

سأله الدكتور (فؤاد) فى اهتمام :

ـ أخبرنى به إذن .

أجابه فى حزم :

ـ لست أوّل من اطلع على بردية (أحمس) ، وإنما طالعها منذ ما يزيد قليلاً على الثلاثين عامًا ، والدى وخالى ، ولقد رفضها والدى ، مثلما رفضتها أنت ، ولكن خالى تحمّس كثيرًا للفكرة ، حتى أنه باع جزءًا كبيرًا من أملاكه فى (انجلترا) ، وجاء إلى هنا ، وقضى ثلاثة أعوام فى البحث والتنقيب ، ثم فوجئنا به يبرق إلينا فى (أمريكا) ، مؤكدًا أنه عثر أخيرًا على صندوق الشمس ، كما نطلق عليه ، وأنه فى طريقه إلى فحصه ، وبعدها اختفى خالى لستة أشهر كاملة ، ثم أبلغتنا السلطات أنه لقى مصرعه هنا ، بالقرب من (أسوان) .

انعقد حاجبا الدكتور (فؤاد) فى شدة ، وهو يقول :

ـ وما الذى يمكن أن يثبته هذا ؟.. ربما أوهم أحدهم خالك بأنه يعرف موضع صندوق الشمس ، ثم خدعه ، أو لجأ إلى قتله ؛ ليستولى على أمواله .

قال (بيشوب) فى حدة :

ـ من المستحيل أن يعلن خالى أنه عثر على صندوق الشمس ، دون أن يكون واثقًا من قوله تمام الثقة .. لقد كان رجلاً بالغ الدقة ، فى كل ما يقوله أو يفعله .

تنهّد الدكتور (فؤاد) ، وهو يقول :

ـ مازالت مجرّد قرينة غير علمية .

بدا الغضب لحظات على وجه (بيشوب) ، قبل أن يقول فجأة فى حماس :

ـ وماذا عن الكوكب العاشر ؟

ارتفع حاجبا الدكتور (فؤاد) ، وهو يردّد فى دهشة :

ـ الكوكب العاشر ؟!..

أجابه الدكتور (بيشوب) ، وحماسه يتزايد :

ـ نعم ، فبردية (أحمس) تشير إلى أن مبعوث الآلهة حدد له الموقع الذى جاء منه ، وقال : إنه يقع ما بين الكوكب الأحمر والكوكب الكبير ، وأنه يحمل اسم (نيوتس) ، وكل فلكى يعرف أن الكوكب الأحمر هو (المريخ) ، أما الكوكب الكبير فهو (المشترى) .

سأله الدكتور (فؤاد) فى تردُّد حذر :

ـ وما الذى يعنيه هذا ؟

أجابه (بيشوب) فى انفعال :

ـ يعنى أن مبعوث الآلهة أخبر (أحمس) بموضع الكوكب العاشر ، قبل نظرية الكويكبات بأكثر من ثلاثة آلاف عام .

تضاعف حذر الدكتور (فؤاد) وتوتره ، وهو يسأله :

ـ وما نظرية الكويكبات هذه ؟

أجابه بحماس شديد :

ـ الكويكبات هى كواكب صغيرة ، تقع مساراتها بين (المريخ) و (المشترى) وتتراوح أقطارها بين كيلومتر واحد و (٢٧٢) كيلو مترًا ، والعلماء يعرفون منها ألفا وخمسمائة كويكب ، أشهرها (سيرس) و (بالاس) ، و (يونو) ، ويعتقدون أنها تكوّنت نتيجة انفجار كوكب عاشر ، كان مداره يقع بين (المريخ) و (المشترى)(*) .

بدا مزيج من التردُّد والحيرة على وجه الدكتور (فؤاد) ، وحاول لبضع لحظات أن يهضم نظرية الدكتور (بيشوب) ، إلا أنه لم يلبث أن هزّ رأسه ، مغمغمًا فى حذر :

ـ ينبغى أن أقرأ نظرية الكويكبات هذه أوّلاً .

ضمّ (بيشوب) شفتيه فى غضب ، قبل أن يقول :

ـ لا فائدة .

ثم اتجه نحو سيارته ، وهو يلوّح بيده ، قائلاً :

ـ أنا عائد إلى (أسوان) .. هل تصحبنى ؟

سأله (فؤاد) فى دهشة :

ـ وماذا ستفعل الآن فى (أسوان) ؟

قفز داخل السيارة ، وأدار محرّكها ، قبل أن يجيب :

(*) نظرية علمية حقيقية .

ـ لدى موعد مع رئيس المدينة ، لمعرفة ما أحاط بموت خالى ، منذ ثلاثين عامًا تقريبًا .

هزّ (فؤاد) كتفيه ، ومطّ شفتيه ، وهو يغمغم :

ـ سيدهشنى أن تجد لديهم ما يفيدك ، بعد كل هذه السنين !

لم يعلّق (بيشوب) ، وهو ينطلق بسيارته مبتعدًا ، ومغمغمًا :

ـ لا فائدة .. لن يصدّقنى أحدهم قط ، إلا لو عثرت على صندوق الشمس هذا .

قالها ، وضغط دوّاسة الوقود ، لتزداد سرعة السيارة أكثر وأكثر ، وتثير خلفها عاصفة هوجاء من الرمال ، لم ينتبه إليها ، والأفكار فى رأسه تغلى ..

وتغلى ..

وتغلى ..

* * *

لم تكن ليلة (أحمد ضرغام) هادئة أو بسيطة أبدًا ، ولم يستغرق فى نوم عميق ، كما كان من المفترض ، بعد الرحلتين الشاقتين ، اللتين قطعهما أمس ..

لقد امتلأت ليلته بكوابيس لا حصر لها ، رأى خلالها نفسه داخل مقبرة فرعونية قديمة ، تمتلئ جدرانها بنقوش لشخص أخضر البشرة ، أزرق الشعر ، يقف وسط كرة من اللهب ، يشعّ

منها ضوء مبهر ، يكاد يغشى الأبصار ..

وكان يبذل قصارى جهده للخروج من المقبرة المغلقة ..

ويصرخ ..

ويصرخ ..

ولكن صرخاته لم تتجاوز حلقه قط ..

كان شيء ما يخنقها فى أعماقه ، ويمنعها من الانطلاق من بين شفتيه ..

وفجأة ، لم يعد ذلك الشخص الأخضر مجرّد نقش على الجدار ..

لقد خرج من صورته ، وهبط على قدميه ، وسط المقبرة القديمة ..

وعندئذ تحوّلت النقوش إلى أشكال أخرى ..

لقد أصبحت كلها عبارة عن نقش مكرّر لـ (أحمد) ، وهو يدق باب المقبرة بقبضتيه ، فى محاولة للفرار من كرة اللهب ، التى يدفعها صاحب البشرة الخضراء نحوه ..

وكما يحدث فى النقش ، اندفع (أحمد) نحو باب المقبرة ، وراح يدقه بقبضتيه فى ذعر ، على أمل أن يسمعه أحد ..

وكان لدقّاته دوى هائل ، يكاد يصمّ أذنيه ، و ...

« استيقظ يا ولدى .. »

اخترق صوت الحاج أذنيه بغتة ، فانتفض جسده فى عنف ، وهو يهبّ جالسًا على فراشه ، ويحدّق فى الوجه الأسمر الهادئ ، قبل أن يطلق من أعمق أعماق صدره زفرة حارة ، قائلاً :

ـ صباح الخير يا حاج .. معذرة ، فقد كنت أعانى كابوسًا ثقيلاً .

أومأ الحاج برأسه متفهّمًا ، وهو يقول فى هدوء :

ـ كان هذا واضحًا فى أنفاسك المتلاحقة ، وتقلباتك العنيفة ، ولهذا أيقظتك .

تنهّد فى عمق ، وتطلّع مرة ثانية إلى وجه الحاج ، قبل أن يقول فى توتر ملحوظ :

ـ هل تعلم !.. لثوان ، كدت أتصوّر أن كل ما حدث أمس ، كان جزءًا من الكابوس .

ابتسم الحاج ، قائلاً :

ـ الجزء الخاص بالمقبرة ، والصندوق ، ونموذج مركب الشمس كان حقيقيًا ..

لم يكن لدى (أحمد) أدنى شك فى هذا ، ولكن حاجبيه انعقدا ، وهو يقول :

ـ ذلك النموذج حقيقى .. أليس كذلك ؟

أومأ الحاج برأسه إيجابًا ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فازداد انعقاد حاجبى (أحمد) ، وهو يقول :

ـ هل أبلغتم هيئة الآثار بشأنه ؟

هزّ الحاج رأسه نفيًا ، وهو يجيب فى هدوء :

ـ كلاّ بالطبع .

سرى التوتر فى جسد (أحمد) ، وهو يقول :

ـ هل تعلمون أن هذا مخالف للقانون ؟!.. إنكم تحتفظون بتحفة

أثرية مدهشة ، لا مثيل لها ، حتى بين آثار (توت ـ عنخ ـ آمون)(*) ، وطبقًا لقانون حماية الآثار ، يعتبر هذا جريمة ، و ...

أشار إليه الحاج بيده ، قائلاً بهدوئه المثير :

ـ مهلاً يا ولدى ، لا تخلط بين العدل والقانون ، فليس من الضرورة أن ينطوى القانون على العدل .

انعقد حاجبا (أحمد) ، وهو يقول :

ـ وكيف هذا ؟

أجابه الحاج فى هدوء :

ـ القانون الإلهى وحده يحمل العدل المطلق ، مع كل حرف من حروفه .

انعقد حاجبا (أحمد) فى شدة ، وهو يقول :

ـ ما الذى يعنيه هذا التلميح بالضبط ؟

ارتسمت ابتسامة هادئة على شفتى الحاج ، وهو يجيب :

ـ لا يعنى شيئًا يا ولدى .. لا يعنى شيئًا .

(*) (توت ـ عنخ ـ آمون) : (١٣٦١ ـ ١٣٥٢ ق . م) ، ملك (مصر) ، من الأسرة (١٨) ، زوج ابنة (إخناتون) ، توج فى مطلع القرن الثانى من عمره ، ومات دون العشرين ، تنصل من ديانة (آتون) ، وعاد إلى (طيبة) والإله (آمون) ، وتم العثور على قبره سليمًا ، بكل كنوزه المعروضة فى المتحف المصرى عام ١٩٢٢ م .

ران عليهما الصمت لحظات ، وكل منهما يتطلّع إلى عينى الآخر مباشرة ، قبل أن يقول (أحمد) ، فى شىء من العصبية :

ـ أنتم تسعون لبيع هذا النموذج .. أليس كذلك ؟

لم يجب الحاج ، وهو يتطلّع إليه فى صمت ، وابتسامته الهادئة لا تفارق شفتيه ، فتابع (أحمد) فى عصبية أكثر :

ـ لن أشارك فى أى عمل مخالف للقانون .

قال الحاج بهدوئه المستفز :

ـ لم يطالبك أحد بأن تفعل .

قال فى حدة ، وهو يجذب تجارب الرسم ، التى أجراها فى الليلة السابقة ، ويلوّح بها فى وجهه :

ـ فيم تريدون هذه الرسوم إذن ؟!.. أليست لعرضها على المشترين ؟

صمت الحاج بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى هدوء ، يحمل الكثير من الحزم :

ـ هذا النموذج لدينا منذ ربع قرن يا ولدى ، فما الذى منعنا من بيعه طوال هذه الفترة فى رأيك ؟!

حدّق (أحمد) فى وجهه مبهوتًا ، وارتج عليه ، فلم يستطع النطق بحرف واحد ، فمال الحاج نحوه ، وربّت على ركبته ، قائلاً :

ـ ثق بنا يا ولدى .. ثق بنا .

ونهض يغادر الحجرة ، تاركًا (أحمد) خلفه ، وفى أعماقه حيرة كبيرة ..

حيرة بلا حدود ..

* * *

نهض رئيس مجلس مدينة (أسوان) ، يصافح الدكتور (بيشوب) بابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

ـ مرحبا يا دكتور .. أعتقد أننا توصلنا أخيرا إلى بعض المعلومات ، الخاصة بوفاة خالك (سام سيمونز) .

سأله (بيشوب) فى لهفة :

ـ هل عرفتم أين مات بالتحديد ؟

أومأ رئيس مجلس المدينة برأسه إيجابا ، وقال :

ـ نعم .. لقد لقى مصرعه فى قرية من قرى النوبة ، بعد أن عثر عليه سكانها فى حالة مزرية ، ويبدو أنه ضل طريقه لفترة ، وسط الصحراء أو الجبال المحيطة بهم ، ولقد أبلغوا أقرب نقطة شرطة إليهم بالأمر ، فأرسلت أحد الجنود ، مع طبيب صحة المنطقة ، ووضع الطبيب تقريرا حول سبب الوفاة ، ثم غادر المنطقة مع الجندى وجثة خالك ، التى تم شحنها إلى أسرته فى (انجلترا) .

سأله (بيشوب) فى لهفة :

ـ وماذا عن متعلقاته ؟

ألقى رئيس مجلس المدينة نظرة على الأوراق أمامه ، قبل أن يجيب :

ـ كلها سلمها الحاج (جمال) ، كبير القرية ، إلى رجل الشرطة ، قبل أن يغادر القرية مع الجثة .

عقد (بيشوب) حاجبيه بضع لحظات ، قبل أن يسأل فى اهتمام :

ـ وأين يمكننى العثور على الحاج (جمال) هذا ؟

ألقى رئيس مجلس المدينة نظرة أخرى على الأوراق ، قبل أن يقول مبتسما :

ـ أخشى أن هذا لم يعد ممكنا .

سأله (بيشوب) فى شىء من الحدة :

ـ ولماذا ؟!

أشار رئيس مجلس المدينة بيده ، قائلا :

ـ الرجل كان فى الخامسة والثمانين من عمره ، عندما مات خالك ، منذ أكثر من ثلاثين عاما ، ولو أنه ما زال على قيد الحياة ، فهو الآن شيخ طاعن فى السن ، تجاوز مائة وخمسة عشر من الأعوام ، ثم إن القرية كلها لم يعد لها وجود .

سأله فى دهشة :

ـ كيف ؟!

لوّح رئيس مجلس المدينة بكفه ، قائلا :

ـ هل تذكر مشروع إنقاذ آثار معبد (أبو سنبل)(*) ؟.. أيامها كان المعبد مهددا بالغرق ، بسبب بحيرة (ناصر) ، وغرقت أيضا بعض قرى النوبة ، فتم تهجير سكانها إلى قرى بديلة ، ومازالت القرى القديمة غارقة تحت مياه البحيرة حتى الآن .

(*) أبو سمبل : معبد فرعونى ، على بعد ٢٨٢ كيلو متر جنوب (أسوان) ، تم بناؤه فى أثناء فترة حكم (رمسيس الثانى ١٣٠٤ ـ ١٢٣٧ ق . م) ، ويحوى بعض النقوش القديمة لمعارك وانتصارات (رمسيس الثانى) على (الحيثيين) ، ومع بناء السد العالى ، وإنشاء بحيرة (ناصر) ، أصبح من الضرورى نقل المعبد إلى منطقة أخرى ، وقام (اليونسكو) بحملة تبرعات ضخمة لنقل وإنقاذ معبد (أبو سمبل) ، بلغت حصيلتها أربعين مليون دولار ، وانتهى نقل المعبد بالكامل عام ١٩٦٨ م .

ازداد انعقاد حاجبى (بيشوب) ، وغرق فى تفكير عميق ، ران خلاله صمت مطبق على الحجرة ، قطعه رئيس مجلس المدينة بقوله :

ـ قل لى يا دكتور (بيشوب) : لماذا انتظرت ما يزيد على ثلاثين عامًا ، قبل أن تبدأ البحث عن أسباب موت خالك ؟

تطلّع إليه (بيشوب) لحظة فى صمت ، وعقله يستعيد الأسباب كشريط سينمائى سريع ..

فعندما مات خاله ، كان هو فى الرابعة والعشرين من عمره ، يدرس علم الآثار فى إحدى جامعات (انجلترا) العريقة ، ولقد بلغه خبر وفاة خاله دون تفاصيل ، وعندما عاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو فى السابعة العشرين من العمر ، لم يبلغه والده بأى أمر يخص مصرع خاله ، بل ولم يناقشا الأمر قط ، طوال سنوات وسنوات ..

وعندما بلغ الخامسة والأربعين ، وفى أثناء زيارة خاصة للمتحف البريطانى ، أطلعه أمين المتحف سرًا على بردية (أحمس) .

ومنذ ذلك الحين ، انقلبت حياته رأسًا على عقب .

لقد كرّس حياته كلها لإثبات صحة ما جاء فى البردية النادرة المنفردة ، والبحث عن ذلك النموذج لمركب الشمس ، الذى يرقد فوق أعظم أسرار الكواكب ..

وعلى الرغم من دراساته التى لا تنتهى ، وأبحاثه التى استغرقت عمره كله ، حتى أنسته حياته الشخصية ، لم يتوصل قط إلى أية نتائج ، بخصوص النموذج أو الصندوق ..

ثم توفى والده بأمراض الشيخوخة ، عندما بلغ هو الرابعة والخمسين من عمره ..

وعندما بدأ فى فرز أوراق والده ومستنداته ووثائقه ، عثر على برقية خاله ، التى اصفرّت وتهالكت ، ولكنها لم تفقد كلماتها بعد ..

وكاد يجن من فرط الانفعال والحماس ..

إذن فالبردية صادقة ..

والنموذج موجود ..

موجود ..

موجود ..

وبكل لهفته وحماسه ، باع (بيشوب) قدرًا كبيرًا من أملاكه ، لتمويل حملة البحث عن النموذج فى (مصر) ..

ولأن البرقية كانت مرسلة من (أسوان) فى (مصر) ، فقد اتجه (بيشوب) مباشرة إليها ، وراح يبحث ، ويبحث ، ويبحث ..

حتى وصل إلى النقطة التى بلغها الآن ..

عرف الموقع الذى لقى فيه خاله مصرعه ..

وهو واثق أن لهذا الموقع دلالته ..

واثق تمام الثقة ..

« لماذا يا دكتور (بيشوب) ؟.. »

انتزعه تكرار سؤال رئيس مجلس المدينة من ذكرياته ، فرفع عينيه إليه ، قائلا :

ـ عندما يبلغ المرء مثل عمرى ، تتبدّل الرؤية أمامه كثيرًا ،

ويصبح أقل عملية ، وأكثر عاطفية .

ابتسم رئيس المدينة ، وهو يقول :

ـ هل تعنى أن الأسباب العاطفية وحدها ، وراء كل ما تفعله ؟

أومأ (بيشوب) برأسه إيجابًا ، وهو يقول فى حزم :

ـ بالتأكيد .

ثم نهض يصافح رئيس مجلس المدينة ، مستطردًا :

ـ وأشكرك على ما بذلته من أجلى .. أشكرك كثيرًا .

وغادر مجلس المدينة ، وقد اختمرت فى رأسه فكرة عجيبة .. عجيبة للغاية ..

* * *

٤ـ الأعماق..

اتسعت عينا الصحفية (ليلى) فى دهشة عارمة ، وهى تحدق فى وجه (أحمد) ، فى حجرة مكتب هذا الأخير فى المجلة ، قبل أن تهتف :

ـ إنها أعجب قصة سمعتها ، فى حياتى كلها ؟!.. أأنت واثق من أن ذلك النموذج حقيقى ؟!

تنهد ، وهز رأسه فى توتر ، قبل أن يجيب :

ـ لست خبيرًا بالآثار المصرية القديمة ، إلا أننى واثق من أن المكان ، الذى ذهبوا إليه ، هو مقبرة فرعونية ملكية ، فقد رأيت نقوشًا لخراطيش ملكية على جدرانها ، ثم إن بها تابوتًا ملكيًا مغلقًا ، ونقوشًا تصف رحلة صاحب المقبرة إلى الحياة الأخرى ، ولكن ...

بتر عبارته بغتة ، وهو يهز رأسه مرة أخرى فى حيرة ، فسألته فى فضول :

ـ ولكن ماذا ؟!

تنهد مرة أخرى ، قبل أن يجيب :

ـ رسم صاحب المقبرة لم يكن يشبه رسوم المصريين المعتادة !! بل هو شخص عجيب ، صبغوا وجهه بلون أخضر ، وشعره بلون أزرق ، كما قرنوا كل رسومه بكرة من اللهب ، بدت وكأنها تتبعه أينما ذهب .

انعقد حاجباها فى اهتمام واضح ، وهى تسأل :

ـ وما الذى يعنيه هذا فى رأيك ؟

ـ مطّ شفتيه ، وهزّ كتفيه ، قائلاً :

ـ ربما يعنى أن صاحب المقبرة ليس مصريًا .

تراجعت هاتفة فى حماس :

ـ مستحيل !.. المصريون لن يدفنوا أجنبيًا فى مقبرة ملكية مصرية !.. أنت تعرف كم يقدسون الموت ، وكم يضفون عليه هالات خاصة ، لا يمكنهم منحها للأجانب قط .

قلب كفيه ، قائلا :

ـ ليس لدىّ تفسير آخر .

بدت عليها ملامح الاهتمام والتفكير العميق ، وهى تدرس الأمر فى رأسها مرات ومرات ، ثم لم تلبث أن غمغمت :

ـ هذا الأمر يحتاج إلى رأى عالم آثار .

تطلّع إليها ، وهى تنطق الكلمة ، وخفق قلبه فى وله ، وتمنى لو صارحها بحبه ، فى هذه اللحظة بالذات ، وفاض به الوجد ، فنهض من مقعده ، قائلا :

ـ (ليلى) .. إننى ..

ولكنها قاطعته فجأة باهتمام شديد :

ـ ولكنك نقلت برسومك كل شىء .. أليس كذلك ؟

أحبطته مقاطعتها ، ولكنه أومأ برأسه إيجابًا ، وفرد اللوحات التى رسمها أمامه ، وهو يجيب :

ـ نقلت النموذج والصندوق فحسب ، ولكنهم لم يسمحوا لى برسم جدار المقبرة .

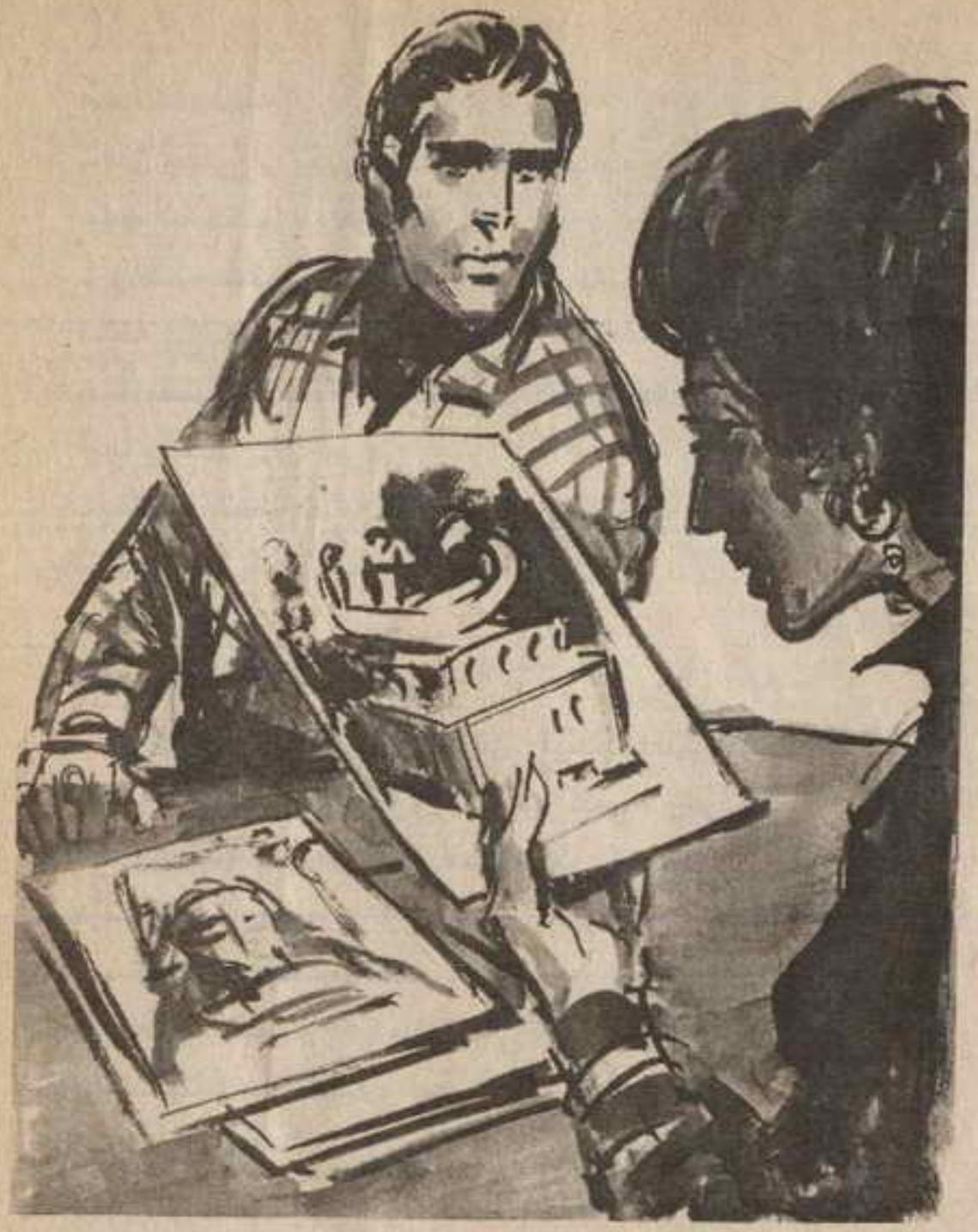

ولكنها قاطعته فجأة باهتمام شديد :

ـ ولكنك نقلت برسومك كل شىء ..

ضحكت ، قائلة :

ـ كان ينبغى أن تخبرهم أنك ستفعل هذا دون أجر إضافى .

ابتسم لضحكتها ، وهو يقول :

ـ بل كنت مستعدًا للتنازل عن أجرى كله مقابل هذا .

سألته فى اهتمام :

ـ بالمناسبة !.. هل أعطوك المبلغ المتفق عليه ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بالتمام والكمال .. بل والأهم أنهم لم يأخذوا الرسوم ..

قالت فى حيرة :

ـ عجبًا !

وأكمل هو بابتسامة عصبية :

ـ لقد أدهشنى هذا أيضًا ، ولكن رئيسهم طلب منى الاحتفاظ بها ، لحين احتياجهم إليها ، وربّت على كتفى ، وهو يؤكد لى أننى رسّام ، والرسّام خير من يجيد الحفاظ على الرسوم .

هزّت رأسها ، قائلة :

ـ يا للغرابة !.. عندما حضر (نجيب) النوبى إلى هنا ، كان يتعجّل الأمر بشدة ، وعندما تنتهى أنت من وضع الرسوم ، يتركونك تحتفظ بها بحجة واهية !

وصمتت لحظة ، قبل أن تلتفت إليه ، وتسأله فى اهتمام :

ـ ما الذى يسعى إليه هؤلاء القوم بالضبط ؟!

هزّ رأسه ، وقال فى حيرة :

ـ من يدرى ؟!

قالت فى شىء من الانفعال :

ـ ثم لماذا احتاجوا إلى رسّام ؟

انعقد حاجباه ، وهو يسألها فى دهشة :

ـ ماذا تعنين ؟!

أجابته بنفس الانفعال :

ـ لو أنهم يسعون لتسجيل ما لديهم ، كان من الأجدى أن يستعينوا بمصوّر فوتوجرافى .

ازداد انعقاد حاجبيه فى شدة ، وهو يعتدل بمقعده ، قائلا :

ـ هذا صحيح .. الصورة أكثر سرعة ودقة ، ويمكنها تسجيل تفاصيل أكبر .

غرقت معه (ليلى) فى تفكير عميق ، قبل أن تقول فى حزم :

ـ هؤلاء القوم لهم أهداف أخرى بخلاف الحصول على رسم جيد للنموذج .

أجابها فى حسم :

ـ بالتأكيد .

سألته فى اهتمام :

ـ كيف يمكننا معرفة ما يسعون إليه فى رأيك ؟

قال فى حيرة :

ـ لست أدرى .. الأمر كله محاط بغموض عجيب ، و ...

قاطعته ، وهى تهتف فجأة :

ـ الرسم .

قال فى دهشة :

ـ أى رسم ؟!

أجابته فى حماس :

ـ لقد تركوا لك رسم النموذج ، ومن خلاله يمكننا فهم بعض الأمور .

اعتدل يواجهها ، متسائلا :

ـ وكيف هذا ؟!

أشارت بسبّابتها ، قائلة :

ـ انشر الرسم فى المجلة .

اتسعت عيناه فى دهشة مستنكرة ، وهو يهتف :

ـ أنشره ؟!

قالت فى حماس :

ـ نعم .. انشر الرسم فى المجلة ، إلى جوار مقال عادى عن الآثار المصرية القديمة ، ولنر رد الفعل .

بدا عليه التردُّد ، وهو يقول :

ـ ولكن هذا ليس من حقى .. إنه رسم خاص بهم .

ضحكت ، قائلة :

ـ يمكنهم إقامة دعوى قضائية ضدك .

صمت لحظات ، وهو يدرس الأمر فى رأسه من كل الوجوه ..

ثم لم يلبث أن ابتسم ، مغمغما :

ـ ولم لا ؟!

فقد بدت له الفكرة جيّدة ..

جيّدة للغاية ..

* * *

« قبل أن نبدأ ، أحب أن أؤكد لك أن ما نفعله مخالف للقانون تماما يا دكتور (بيشوب) .. »

نطق رجل فى ملابس الغوص هذه العبارة فى حزم ، وهو يخوض فى مياه بحيرة (ناصر) فى حذر ، وإلى جواره (بيشوب) ، فى زى غوص مماثل ، فألقى هذا الأخير نظرة على ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى الواحدة صباحا ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ فليكن .. لقد أنذرتنى ثلاث مرات ، وهذا يكفى بالنسبة لرجل يتمتّع بقدر ما من الذكاء .. نعم .. أعلم أن هذا مخالف للقانون ، ولكننى مصر عليه ، وأعتقد أن المبلغ الذى نقدته إياه يستحق المخاطرة .. أليس كذلك ؟

مطّ الغوّاص شفتيه ، ووضع منظار الغوص على وجهه ، وهو يقول :

ـ كنت أتأكّد من أنك تعلم فحسب .

قالها ، وغاص فى مياه البحيرة ، وهو يحمل مصباحه الضخم ، فتبعه (بيشوب) بلا تردُّد ، وغاص بدوره فى البحيرة ..

ولدقائق ، واصل الاثنان رحلتهما نحو الأعماق ، دون أن يتبادلا إشارة واحدة ، ثم لم يلبث الغوّاص المحترف أن أشار بيده إلى اليسار ، وهو يدير مصباحه الضخم إلى حيث يشير ، فظهرت فى الأعماق أطلال منازل حجرية قديمة ، اتخذتها أسراب الأسماك منازل لها ، فتكدّست داخلها ، وراحت تدور حول جدرانها المتهالكة ..

وعلى نحو مباشر ، اتجه الاثنان إلى تلك الأطلال الغارقة مباشرة ، وأشار (بيشوب) للغوّاص ، يسأله عن القدر الذى يمكنهما البقاء خلاله فى الأعماق ، فأشار إليه الغوّاص بأنه لن يزيد على ساعة واحدة ، وهنا أومأ (بيشوب) برأسه متفهمًا ، وراح يسبح حول الأطلال الغارقة ، وكأنه يبحث عن شىء ما ..

وعلى الرغم من أن الغوّاص لم يفهم بالضبط ما يسعى إليه (بيشوب) ، إلا أنه تبعه دون مناقشة ، وراحا يسبحان معًا فى الأعماق ، ويتفقدان الصخور المحيطة بالأطلال ، حتى شارفت الساعة على الانتهاء ، فأشار إليه الغوّاص ، وبدأ الاثنان رحلة العودة إلى السطح ..

ولم يكد الغوّاص يلتقط أنفاسه ، من الهواء الطبيعى النقى ، حتى سأل (بيشوب) فى اهتمام :

ـ هل عثرت على ما كنت تبحث عنه ؟!

أجابه (بيشوب) فى شىء من العصبية :

ـ كلاّ .

تلفّت الغوّاص حوله فى قلق ، قائلاً :

ـ هل تعتقد أنه من الحكمة أن نغوص ثانية ؟!.. لقد حالفنا الحظ حتى الآن ، ولم ينتبه أحد إلينا ، لأننا اخترنا منطقة غير حيوية للغوص ، ولكن لو ...

قاطعه (بيشوب) فى صرامة :

ـ لن نغوص ثانية .

اتسعت عينا الغوّاص فى دهشة ، قائلاً :

ـ أتعنى ليس الليلة ؟

أجابه فى حزم :

ـ بل لن نغوص مرة ثانية قط .

ولم يفهم الغوّاص ما يعنيه هذا !..

مادام لم يعثر على بغيته ، فلماذا يرفض الغوص للبحث عنه ثانية ؟!..

ثم ما الذى كان يبحث عنه ، حول تلك الأطلال القديمة الغارقة ؟!..

حار فى محاولة تفسير الأمر بضع لحظات ، ثم لم يلبث أن هزّ رأسه ، قائلاً لنفسه فى أعماقه :

ـ وماذا يعنينى فى هذا ؟.. لقد حصلت على أجرى كاملاً ، وانتهى كل شىء بسلام ، وليذهب الأمريكى وما يبحث عنه إلى الجحيم .

وأسعده أن عادا إلى الشاطئ فى أمان ، فاستبدل ثيابه ، كما فعل (بيشوب) ، وضمّتهما سيارة هذا الأخير ، وهما يبتعدان عن المنطقة ، ويتجهان إلى المدينة ، دون أن يتبادلا حرفًا واحدًا .

فقد كان الأمريكى غارقًا فى لجّة من الأفكار ..

لقد فحص المنطقة المحيطة بالأطلال الغارقة ، ولم يعثر على أية علامات ، تشير إلى وجود مقابر فرعونية ، أو حتى كهوف جبلية فى المكان ..

فمن أين جاء خاله إذن ، عندما وصل إلى تلك القرية منهارًا ضائعًا ؟!..

ووصوله إلى هناك ، بهذه الحالة السيئة ، يعنى أنه ضلّ طريقه

فى مكان بعيد نسبيًا ، فلماذا لم يلجأ إلى أية قرية أخرى فى الطريق ، أو حتى إلى مركز الشرطة ، الذى كان سيلتقى به حتمًا ، وهو يتجه إلى القرية ، من الطريق الرئيسى ؟!..

ألا يعنى هذا أنه لم يتخذ الطرق الرسمية أو الرئيسية ؟!..

انعقد حاجبا (جون بيشوب) فى شدة ، وهو يعيد دراسة الأمر كله مرات ومرات ، قبل أن يهتف فجأة ، وهو يضغط فرامل السيارة بحركة غريزية :

ـ ربّاه !.. هذا ما حدث بالتأكيد .

اندفع جسد الغوّاص إلى الأمام فى عنف ، بتأثير التوقف المباغت ، وهتف فى سخط :

ـ ماذا حدث ؟!

لم يبد على (بيشوب) أنه سمعه ، خلال الدقيقة التالية كلها ، ثم لم يلبث أن قال فى انفعال ، وكأنه يتحدّث مع نفسه :

ـ كيف لم أنتبه إلى هذا الأمر البسيط منذ البداية ؟!.. إنه لم يتخذ الطريق الرئيسى أبدًا .

قال الغوّاص فى دهشة :

ـ لم يتخذ ماذا ؟!

انعقد حاجبا (بيشوب) فى صرامة ، وهو يقول :

ـ لا عليك يا رجل ، هذا الأمر لا يخصك .

وعاد يضغط دوّاسة الوقود ؛ لتواصل السيارة سيرها إلى المدينة ، وعقله يسبح فى أفكاره الجديدة ..

الآن فقط ، يمكنه تحديد منطقة البحث ..

لقد عثر خاله على صندوق الشمس فى منطقة ما ، فى قلب الصحراء وحزام الجبال ، توازى نفس البقعة ، التى كانت تحتلها القرية النوبية ، قبل أن تغرقها مياه بحيرة (ناصر) ..

السؤال الآن هو أين ؟..

فى أية منطقة من الصحراء بالتحديد ؟!..

انشغل بالفكرة طوال الوقت ، وحتى بعد أن وصل إلى فندقه ، فى الثالثة صباحًا ، فجلس يدرسها فوق خريطة كبيرة للمنطقة ، ويضع علامات ترجيحية هنا وهناك ، إلى أن أنهكه العمل والبحث ، فألقى جسده المكدود فوق أقرب مقعد صادفه ، وهو يسبل جفنيه ، متمتمًا :

ـ كم أحسدك على ما توصلت إليه يا خالى .

تثاءب فى تهالك ، وألقى نظرة على ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى السادسة والنصف صباحًا ، قبل أن يتابع :

ـ يا لها من ليلة طويلة !

وترك جفناه يلتقيان ، بعد أن عجز عن إبقائهما مفتوحين ، فانطبقا فى إرهاق ، وراح فى نوم عميق ، وعقله ما زال يحمل السؤال نفسه ..

أين عثر خاله على صندوق الشمس ؟!..

أين ؟!..

* * *

لم تكد السيارة تصل بالنوبى (نجيب) إلى قريته ، حتى قفز منها ، وانطلق يعدو عبر شوارعها ، وهو يلوّح بمجلة فى يده ، هاتفًا :

ـ يا حاج .. يا حاج .

توقّف الحاج عما يفعله ، ورفع عينيه إليه فى تساؤل ، فواصل الجرى حتى موضعه ، ولهث فى شدة ، وهو يقول :

ـ انظر يا حاج .. (أحمد ضرغام) نشر رسم النموذج فى المجلة ، التى يعمل بها .

التقط الحاج المجلة فى هدوء ، وأخرج منظاره من جيب جلبابه الناصع البياض ، ووضعه على عينيه ، وهو يتطلّع فى اهتمام إلى الرسم المنشور ، قبل أن يهزّ رأسه ، ويبتسم ابتسامة هادئة ، فقال (نجيب) لاهثًا :

ـ هل كنت تتوقّع هذا يا حاج ؟

أومأ الحاج برأسه إيجابًا ، وهو ينزع منظاره عن عينيه ، قائلاً بابتسامة عذبة :

ـ بالتأكيد .

قال (نجيب) فى توتر شديد :

ـ ولكن هذا سيكشف سرنا يا حاج .

هزّ الحاج رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ اطمئن .. إنه مجرّد رسم .

تطلّع إليه بنظرة تحمل عدم الفهم ، فتابع الحاج فى رصانة ، وابتسامته لا تفارق شفتيه :

ـ لو أنها صورة فوتوجرافية ، لكانت دليلاً حاسمًا على وجود النموذج ، ثم إنها كانت ستنقل نقوش المقبرة أيضًا ، مما يثير

انتباه وحماس كل عالم ومهتم بالآثار ، فى العالم أجمع ، أما الرسم ، فهو أمر يمكن التشكيك فيه .

لم تختف نظرة عدم الفهم من عينى (نجيب) تمامًا ، فتابع الحاج بنفس الهدوء والرصانة ، وهو يتطلّع إلى عينيه مباشرة :

ـ معظم من سيطالعون الرسم ، سيتصوّرون أنه من خيال الرسّام ، الذى أضاف نموذجًا لمركب شمس ، على قمة صندوق فرعونى قديم ، والشخص الذى سيتوقّف طويلاً عند الرسم ، وينجذب إليه بشدة ، ويسعى لسؤال الرسّام عن كيفية وضعه ، هو بالتأكيد شخص يدرك أن مثل هذا النموذج موجود .

ثم هزّ رأسه فى وقار ، مضيفًا :

ـ وهذا هو الشخص الذى نحتاج إليه .

بدت الدهشة على وجه (نجيب) ، وهو يقول :

ـ أتعنى أن نشر الرسم يتفق مع ما نسعى إليه يا حاج .

أومأ الحاج برأسه إيجابًا ، وهو يقول فى حزم :

ـ بالتأكيد يا ولدى .. بالتأكيد .

وعاد ينهمك فى عمله ..

* * *

رفع عالم الآثار المصرى الدكتور (فؤاد) عينيه ، عن المجلة التى يطالعها ، ليتطلّع فى اهتمام إلى عاصفة الرمال ، التى أثارتها سيارة الدكتور (بيشوب) (الجيب) ، وهى تتجه بسرعتها المعتادة إلى موقع الحفر ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة ، عندما توقّفت السيارة على مقربة منه ووثب منها الدكتور

(بيشوب) فى نشاط ، واتجه نحوه فى خطوات واسعة ، فاستقبله ، قائلا :

ـ صباح الخير يا دكتور (بيشوب) .. هل غلبك النوم اليوم ، فلم تستيقظ مبكرا كعادتك ؟

صافحه (بيشوب) فى شىء من التوتر ، وهو يقول :

ـ نعم ، فلم أنم جيدا ليلة أمس .

ثم أشار إلى موقع الحفر ، مستطردا فى حزم عصبى :

ـ أعتقد أننا أخطأنا اختيار هذا الموقع .

ارتفع حاجبا الدكتور (فؤاد) فى دهشة ، وهو يقول :

ـ أخطأنا ماذا ؟!.. ومن وضع فى رأسك هذه الفكرة ؟!.. إننا لم نحفر إلى العمق المناسب بعد ، وربما لو ...

قاطعه (بيشوب) بسرعة :

ـ كلاّ .. هذا لن يجدى .. لقد أخطأنا اختيار الموقع بالتأكيد ..

انعقد حاجبا الدكتور (فؤاد) ، وهو يتطلّع إليه ، قائلاً :

ـ عجبًا !.. كنت شديد الحماس ، فى اختيار هذا الموقع للتنقيب ، على الرغم من معارضتى لذلك .

قال (بيشوب) بنفاد صبر :

ـ كنت مخطئا .

ثم انتزع من جيبه خريطة المنطقة ، وفردها أمامهما ، مستطردا :

ـ لقد راجعت حساباتى ، ووجدت أنه كان ينبغى أن ننقّب هنا .. فى تلك البقعة ، شمال بحيرة (ناصر) .

استعادت ملامح الدكتور (فؤاد) دهشتها ، وهو يقول :

ـ يا له من موقع !.. لا أحد بحث عن الآثار هناك يا رجل منذ زمن طويل .. من أين واتتك الفكرة ؟!.. ثم أية حسابات تلك التى راجعتها ؟

أشار (بيشوب) إلى الموقع الذى اختاره فى عصبية ، وهو يقول :

ـ أؤكد لك أن هذا هو الموقع المناسب .

تطلّع إليه (فؤاد) لحظات فى صمت ، ثم لم يلبث أن هزّ رأسه ، قائلا :

ـ لست أفهمك اليوم يا (بيشوب) .. حقيقة لست أفهمك أبدا .

صاح (بيشوب) فى عصبية زائدة :

ـ افهم أو لا تفهم .. هذا شأنك .. المهم أن ننتقل إلى ذلك الموقع الجديد على الفور .

قفزت دهشة (فؤاد) إلى ذروتها ، مع هذا الانفعال العنيف ، واقترب من (بيشوب) فى قلق ، قائلاً :

ـ ماذا أصابك يا رجل ؟.. ألم تحصل على قدر كاف من النوم ؟

صاح (بيشوب) فى حدة :

ـ ليس هذا من شأنك .. المهم أن نذهب إلى هناك ، وأن ننقّب ، ونحفر ، حتى نجد صندوق الشمس .. هذه هى الوسيلة الوحيدة لإثبات صحة بردية (أحمس) .

رفع (فؤاد) سبّابته ، قائلا :

ـ بمناسبة الحديث عن صندوق الشمس هذا .. هل رأيت ذلك

الرسم ، الذى يزين موضوع (الآثار الخالدة) ، فى هذه المجلة ؟

ناوله المجلة ، وهو يشير إلى الرسم المنشور فى نصف صفحة كاملة ..

وانتفض جسد (بيشوب) كله فى انفعال ..

واتسعت عيناه عن آخرهما ..

إنه هو ..

هو بلا أدنى شك ..

صندوق الشمس ، الذى وصفه خاله ..

نموذج لمركب من مراكب الشمس ، قاعدته غطاء لصندوق كبير ، تزينه نقوش تروى القصة كلها ..

وعلى الرغم من أن النقوش لم تكن واضحة تمامًا ، فى الرسم المنشور ، إلا أن قلب (بيشوب) راح يخفق بشدة ، وهو يجرى فوقها بعينيه ..

ها هو ذا مبعوث الآلهة ..

وكرة اللهب ..

والشمس التى لا تنطفئ أبدًا .

ثم هناك ذلك الرمز ، الذى لا يعنى شيئًا محدودًا باللغة الهيروغليفية ..

(بى - دو) ..

وفى حركة مباغتة ، قبض (بيشوب) على المجلة بأصابعه فى قوة ، وانطلق يعدو نحو سيارته ، وقفز داخلها ، والدكتور (فؤاد) يهتف خلفه فى دهشة :

- انتظر يا رجل .. إنه مجرد رسم بسيط ، من خيال رسام جامح .

ولكن (بيشوب) أدار محرك سيارته ، وانطلق بها ، مثيرًا عاصفة أخرى من الرمال ..

وعاصفة أكثر ضخامة من الحيرة ..

ومن الغموض .

* * *

٥ - الحاج ..

« الأستاذ (أحمد ضرغام) الرسام ؟!.. »

رفع (أحمد) عينيه فى دهشة إلى الرجل ، الذى نطق العبارة بالأمريكية(*) ، وهو يقف عند باب حجرته ، وتطلّع إليه فى اهتمام ، وقد بدا له أشبه بأحد الرحالة ، الذين قرأ عنهم كثيرا فى شبابه ، بلحيته وشاربه القصيرين ، وشعره الأشيب ، والسروال القصير ، وذلك المنظار الأنيق ، والنظرة المفعمة باللهفة ، المطلّة من خلفه ، فاعتدل مجيبًا :

- نعم .. أنا (أحمد ضرغام) .. هل من خدمة ، يمكننى تقديمها لك ؟

دلف الرجل إلى الحجرة فى خفة ، وأغلق بابها خلفه ، وهو يقول :

- بالتأكيد .

ثم قطع المسافة من الباب إلى مكتب (أحمد) فى خطوة كبيرة واسعة ، قبل أن يضع أمامه نسخة المجلة ، متسائلا :

- أنت صاحب هذا الرسم .. أليس كذلك ؟

أجابه (أحمد) فى اقتضاب حذر :

- بلى .

سأله الرجل فى لهفة شديدة :

(*) فى الترجمة الرسمية تعتبر الأمريكية لغة مختلفة عن الإنجليزية .

ثم قطع المسافة من الباب إلى مكتب (أحمد) فى خطوة كبيرة واسعة ، قبل أن يضع أمامه نسخة المجلة ..

ـ هل شاهدت ذلك النموذج بنفسك ؟!

تردّد (أحمد) لحظة ، قبل أن يقول :

ـ لست مضطرًا لإجابة هذا السؤال .

صاح فيه (بيشوب) فى غضب :

ـ بل أنت مضطر .

تراجع (أحمد) فى فزع ودهشة ، وحدّق فى وجه (بيشوب) ، الذى تراجع فى سرعة ، مستدركا فى عصبية :

ـ أعنى أنه من واجبك أن تفعل .

ظلّ (أحمد) يحدّق فى وجهه لبضع لحظات أخرى ، وقد خُيّل إليه أن الرجل مجنون أو مخبول ، ثم لم يلبث أن اعتدل ، وقال محاولا التماسك :

ـ ليس من حقى أن أخبرك .

سأله فى لهفة :

ـ ولماذا ؟!

تردّد (أحمد) لحظة أخرى ، قبل أن يجيب :

ـ لابد أن أسأل أصحابه أوّلا .

تراجع (بيشوب) ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يهتف :

ـ أصحابه ؟!..

ثم اندفع إلى الأمام ثانية بحركة حادة ، أفزعت (أحمد) ، قبل أن يستطرد فى انفعال عنيف :

ـ إذن فقد رأيته بالفعل !

شعر (أحمد) بالحنق ، من أسلوب الرجل ، فلوّح بكفه هاتفا :

ـ كيف دخلت إلى هنا ؟.. من سمح لك بالوصول إلى مكتبى ؟.. ماذا أصاب طاقم الأمن هنا ؟!

قالها ، ويده تقفز إلى سمّاعة الهاتف ، ولكن لم تكد أصابعه تحتويها ، حتى أمسكتها يد (بيشوب) فى قوة . وهذا الأخير يقول :

ـ مهلا .. من الواضح أنك لاتفهم شيئا .

تطلّع إليه (أحمد) فى عصبية ، وهو يقول :

ـ اسمع يا رجل ..

قاطعه (بيشوب) فى سرعة ، وهو يقدّم له جواز سفره :

ـ (بيشوب) .. الدكتور (جون بيشوب) ، خبير الآثار المصرية القديمة ، والأستاذ بجامعة (جورج واشنطن) الأمريكية .

ارتفع حاجبا (أحمد) فى دهشة ، وهو يقول :

ـ خبير آثار مصرية قديمة ؟!

وابتعدت يده عن سمّاعة الهاتف ، مستطردا :

ـ لهذا إذن أثار الرسم اهتمامك .

أعاد (بيشوب) جواز سفره إلى جيبه ، وهو يتخذ مقعدا أمام مكتب (أحمد) ، ويقول فى حماس :

ـ ليس لأننى خبير آثار فحسب ، ولكننى قضيت السنوات العشر الأخيرة تقريبا فى البحث عن ذلك النموذج بالذات .

هتف (أحمد) :

ـ حقا ؟!

أومأ (بيشوب) برأسه إيجابا ، وازدرد لعابه ، قائلا :

ـ عندما شاهدت الرسم فى المجلة ، أدركت على الفور أنه ليس نتاج خيال فنان ، وإنما هو نقل أمين لنموذج شاهده بعينيه ، ولهذا أتيت إليك على الفور ؛ لأسألك أين ومتى رأيت هذا النموذج ؟

هز (أحمد) رأسه ، قائلا :

ـ لست أعتقد أنه من حقى أن أخبرك .

توتر (بيشوب) فى شدة ، وهو يقول :

ـ اسمع .. سأمنحك عشرة آلاف دولار .

فغر (أحمد) فاه فى دهشة ، مع ضخامة المبلغ ، وغمغم :

ـ عشرة آلاف دولار ؟!

هتف (بيشوب) فى انفعال :

ـ سأرفع المبلغ إلى خمسة عشر ألفا .. بل عشرين ألف دولار ، مقابل معرفة مكان ذلك النموذج .

هز (أحمد) رأسه ، وهو يتنهد فى أسف ، قائلا :

ـ المبلغ كفيل بإدارة الرأس بالفعل ، ولكنى أجهل للأسف أين ذلك النموذج .

اتسعت عينا (بيشوب) فى ارتياع ، وهو يهتف :

ـ ولكنك قلت : إنك رأيته بنفسك ؟!

أجابه (أحمد) :

ـ هذا صحيح .. لقد رأيته بنفسى أربع مرات ، ورأيت المقبرة التى تضمه ، والتى تحمل جدرانها أعجب نقوش فرعونية رأيتها فى حياتى كلها ، وذلك التابوت الملكى ، ولكننى أجهل تماما أين يوجد كل هذا .

سال لعاب (بيشوب) لما سمعه ، وود لو انقض على (أحمد) ، وانتزع منه السر انتزاعا ، ولكنه بذل طاقة خرافية للسيطرة على أعصابه ، وهو يقول له :

ـ صف لى المكان ، وسأجده أنا بوسائلى .

هز (أحمد) رأسه فى أسف ، وهو يقول :

ـ لقد ذهبت إليه معصوب العينين .

ارتد (بيشوب) كالمصعوق ، هاتفا :

ـ معصوب العينين .

ثم ارتجف جسده كله من فرط الانفعال ، وانتقلت الارتجافة إلى شفتيه وصوته ، وهو يقول :

ـ مستر (أحمد) .. أعتقد أنه من واجبك أن تقص على القصة كلها ، فأنا فى ذروة اللهفة لسماعها .

تردد (أحمد) لدقيقة كاملة ، قبل أن يحسم أمره ، قائلا :

ـ فليكن .. إننى أحتاج إلى من يشرح لى ما عجزت عن فهمه .

ثم رفع عينيه إلى (بيشوب) ، مستطردا فى حزم :

ـ سأقص عليك القصة كلها يا دكتور (بيشوب) .

ارتفع فجأة صوت أنثوى يقول :

ـ أية قصة ؟!

التفت (أحمد) إلى مصدر الصوت فى سرعة ، ثم انعقد حاجباه فى توتر شديد ..

فهناك .. عند باب الحجرة . كانت تقف (ليلى) ، وإلى جوارها آخر شخص يرغب فى رؤيته ، فى الوقت الحالى ..

(نجيب) ..

النوبى (نجيب صديق) ..

* * *

جلس الدكتور (فؤاد) لنصف ساعة كاملة ، يتطلع إلى رسم نموذج مركب الشمس ، فى نسخة جديدة من المجلة ، قبل أن يهز رأسه ، ويغمغم فى شىء من عدم الارتياح :

ـ غير معقول !

ثم نهض إلى مكتبه ، والتقط عدسته المكبرة ، وعاد يستخدمها فى فحص الرسم ..

ومع التكبير ، بدت النقوش أكثر وضوحا ..

وتضاعفت دهشة الدكتور (فؤاد) وحيرته ..

لقد كانت لغة هيروغليفية(*) سليمة ، يعود أسلوبها إلى عهد

(*) الهيروغليفية : كتابة تصويرية ، استعملها المصريون القدماء ، وتشمل لغة أهل (كريت) و (آسيا الصغرى) ، و (سورية) ، و (أمريكا الوسطى) ، و (المكسيك) ، وربما كانت أساسا للأبجدية الفينيقية ، وغيرها من نماذج الكتابة ، التى استخدمت فى (آسيا) ، والحروف الهيروغليفية رسوم تقليدية ، تستعمل أساسا لتمثيل معان تبدو صعبة فى دلالتها ، وكان للعثور على حجر (رشيد) الفضل فى فك رموزها ..

الأسرة الثامنة عشرة ، وتروى نفس القصة التى أشار إليها الدكتور (بيشوب) ..

أو جزءا منها على الأقل ..

فمن الواضح أن القصة نقشت على جدران الصندوق الأربعة ، والرسم لا يحوى سوى جانب واحد منها ..

ولكن دقة هذا الجانب تؤكد أن الرسم ليس وحيا من خيال الفنان ..

إنه شىء رآه ، وتأثر به ، وتفاعل معه ..

ورسمه ..

شىء رآه رأى العين ..

ومرة أخرى انعقد حاجبا الدكتور (فؤاد) ، وتراجع بظهره إلى مسند مقعده ، وهو يغمغم :

ـ إذن فقد كان (بيشوب) على حق .. بردية (أحمس) ليست محض خيال .. صندوق الشمس حقيقة واقعة ..

استعاد ذهنه حديث (بيشوب) حول الصندوق ومحتوياته ، وعلاقته بالكوكب العاشر ، الذى كان يدور يوما فى مجموعتنا الشمسية ، ثم انفجر ، ولم يتبق منه سوى عدد من الكويكبات والنيازك ..

ثم عاد يهز رأسه فى عنف ، قائلا :

ـ صعب .. صعب ..

كان هناك صراع عنيف يدور فى أعماقه ، ما بين تصديق ما يصر عليه (بيشوب) ، وما يوحى به الرسم ، ورفض عقله

لفكرة قدوم كائن من كوكب آخر ، لزيارة ملك (مصر) ، وتسليمه أسرارًا رهيبة ..

فالفكرة ـ بالنسبة إليه ـ تبدو أشبه بروايات الخيال العلمى ..

تلك الروايات التى لم ولن يلقى نظرة واحدة عليها ، فى حياته كلها ..

إنه لا يقتنع بما يأتى بها ..

بل ولا يجد مبررًا واحدًا لكتابتها أو قراءتها ..

لا يوجد فى العالم خيال جامح ..

توجد فقط حقائق ..

حقائق مجردة ..

ولكن حتى فكرته هذه اصطدمت بجدار صلب ..

من قال : إن العالم يخلو من الخيال ؟!..

أعظم المخترعات بدأت بخيال عالم ..

بفكرة ..

بنظرية ..

ثم تطوّر الخيال ، وتجسّد ، ليضع حقائق مازالت تملأ حياتنا فى كل لحظة ..

الكهرباء كانت خيالا ..

والمصابيح ..

والأسلحة ..

وحتى السفر عبر الفضاء ، بدأ كخيال ، وانتهى كحقيقة لا تقبل الجدل ..

ومرة أخرى ، عاد الصراع يحتدم فى عقله ، وعجز عن الاسترخاء فى مقعده ، فنهض فى حركة حادة ، واتجه إلى مكتبته ، وأدار عينيه فى صفوف الكتب المتراصة فيها ، وعناوينها المختلفة ، قبل أن يغمغم :

ـ من يدرى ؟!.. ربما يحتاج الأمر منى إلى مزيد من الدراسة والبحث .. من يدرى ؟!

نعم يا دكتور (فؤاد) ..

من يدرى ؟!..

* * *

توتّر الدكتور (بيشوب) فى شدة ، وانقلبت سحنته على نحو عجيب ، حتى بدا أشبه بوحش كاسر ، عندما دلفت (ليلى) والنوبى إلى مكتب (أحمد) ، وهذه الأخيرة تقول بابتسامتها الساحرة :

ـ هل أزعجناكما ؟

لم يفهم (بيشوب) عبارتها ، التى نطقتها بالعربية ، ولكنه رمقها بنظرة غاضبة شرسة ، تلاشت لها ضحكتها ، وحلّ محلّها شىء من الخوف ، وهى تقول :

ـ ماذا هناك ؟

نهض (أحمد) يستقبلها فى سرعة ، وهو يقول بالإنجليزية :

ـ لا شىء .. إنه الدكتور (بيشوب) .. خبير آثار أمريكى ، يرغب فى نشر مقال حول الآثار المصرية القديمة .

قالها ، وهو يرمى (بيشوب) بنظرة سريعة ، استوعبها هذا

الأخير على الفور ، وإن لم يرق لـه مغزاهـا ، فـازداد انعقـاد حاجبيه ، فى حين صافح (أحمد) (نجيب) ، وهو يقول :

ـ مرحبًا يا أستاذ (نجيب) .. متى وصلت إلى (القاهرة) ؟

أجابه النوبى بلهجته الشديدة التهذيب كالمعتاد :

ـ الآن فقط يا أستاذ (أحمد) .. لقد أتيت من المطار إلى هنا مباشرة ..

قال (أحمد) فى حرارة مبالغة :

ـ حمدًا لله على سلامتك يا أستاذ (نجيب) .. تفضل .. سأتفرغ لك بعد قليل .. تفضلى يا (ليلى) .

جلست (ليلى) والحيرة تملأ نفسها ، وعيناها لا تفارقان وجه (بيشوب) ، الذى بدا شديد الحنق والغضب ، و (أحمد) يلتفت إليه ، قائلا :

ـ معذرة يا دكتور (بيشوب) .. هل يمكننا استكمال حديثنا فيما بعد ؟

رمقه (بيشوب) بنظرة شديدة التوتر ، قبل أن يغمغم :

ـ لا بأس .. أنا أقيم فى فندق (هيلتون النيل) ، فى الحجرة رقم (٤٠٣) .. سأنتظر محادثتك على أحرّ من الجمر ..

ثم ألقى نظرة شرسة على (ليلى) و (نجيب) ، وتوقف لحظة عند وجه هذا الأخير ، قبل أن يسأله بالإنجليزية فى اهتمام :

ـ أنت نوبى .. أليس كذلك ؟

أومأ (نجيب) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ بلى يا سيدى .

هزّ (بيشوب) رأسه دلالة الفهم ، وغمغم :

ـ كنت أتوقع هذا .

ثم رمق (أحمد) بنظرة أخرى ، قبل أن يغادر حجرة مكتبه .

ولم يكد (بيشوب) يغلق الباب خلفه ، حتى التفتت (ليلى) إلى (أحمد) ، تسأله فى انفعال :

ـ من هذا الرجل ؟!

لوّح بكفه ، وهو يتنهد ، مجيبا :

ـ قلت لك : إنه خبير آثار أمريكى .

انعقد حاجباها ، وهى تقول :

ـ عجبًا !.. يبدو لى كرجل عصابات أمريكى .

مطّ (أحمد) شفتيه ، وهزّ كتفيه وهو يقول :

ـ لا تحكمى على الناس من مظهرهم .

ثم التفت إلى (نجيب) ، مستطردًا فى سرعة ، وكأنه يحول بينها وبين الخوض فى أمر (بيشوب) هذا :

ـ قل لى يا أستاذ (نجيب) : هل تحتاجون إلى رسوم أخرى ؟!

هزّ (نجيب) رأسه نفيًا فى هدوء ، وقال :

ـ كلا يا أستاذ (أحمد) .. أشكرك .. الرسوم الأولى كانت جيدة بما يكفى .

سأله (أحمد) فى توتر :

ـ لماذا لم تحتفظوا بها إذن ؟

تجاهل (نجيب) السؤال تماما ، وهو يميل نحوه ، قائلا :

ـ الحاج يرغب فى مقابلتك .

تراجع (أحمد) فى دهشة ، مغمغما :

ـ الحاج ماذا ؟!

ومرة أخرى ، تجاهل (نجيب) السؤال ، وأخرج من جيبه تذكرتى سفر ، وهو يقول :

ـ لقد حجزت لنا تذكرتى سفر ، فى الطائرة المسافرة إلى (أسوان) ، بعد ساعتين من الآن .

هتفت (ليلى) فى دهشة :

ـ بعد ساعتين ؟!

وانعقد حاجبا (أحمد) فى شدة ، وهو يقول فى عصبية :

ـ من يظن نفسه ذلك الحاج ؟!.. هل يعتقد أنه صار قائدا حربيًا ، وكلنا جنود فى جيشه ، حتى يأمر فيطاع ؟!.. هل يكفى أن يشير إلىّ بسبّابته ، قائلا : احضر يا (أحمد) ، فأهرع إليه على الفور ؟!

ارتفع حاجبا (نجيب) فى دهشة ، وهتف :

ـ معاذ الله أن يفكر الحاج بهذا الأسلوب يا أستاذ (أحمد) .. إنه لا يفعل هذا معنا ، وهو كبيرنا ، وله علينا حق الطاعة ، فكيف يفعله مع صديق مثلك .

تراجع (أحمد) مع كلمات (نجيب) ، الذى تابع فى تأثُّر :

ـ الحاج لم يرسلنى لآمرك بالحضور ، وإنما لأرجوك أن تذهب لمقابلته ، باعتبار أنك صرت صديقا لقومنا ، يمكننا اللجوء إليه وقت الحاجة ..

ثم دسّ يده فى جيبه ، مستطردا :

ـ ولو أنك تطلب مقابلا ماليًا لهذا ، فقد خوّلنى الحاج الحق فى ...

قاطعه (أحمد) فى حزم :

ـ كفى يا أستاذ (نجيب) .

كان رد النوبى منطقيًا مفحما ، حتى أن (أحمد) شعر بحرج شديد فى أعماقه ، وهو يتابع :

ـ هل تسمح بالانتظار فى الخارج لبضع دقائق ؟.. أريد التحدُّث مع (ليلى) وحدنا .

أدار (نجيب) عينيه فى وجهيهما ، ثم نهض ، قائلا :

ـ بالطبع يا أستاذ (أحمد) .. بالطبع .

تابعته (ليلى) ببصرها ، وهو يغادر الحجرة ، ويغلق بابها خلفه فى رفق وحرص ، ثم التفتت إلى (أحمد) ، تسأله فى حيرة :

ـ لماذا طلبت منه الخروج ؟

سألها فى اهتمام :

ـ ما رأيك فى هذا الأمر ؟

قالت فى اهتمام :

ـ أتقصد السفر ومقابلة الحاج ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، فمطّت شفتيها ، قائلة :

ـ أعتقد أنك مضطر لهذا .

ارتفع حاجباه فى دهشة ، وهو يقول :

ـ مضطر ؟!

أجابت فى حماس :

ـ بالطبع .. الواجب يحتم عليك أن تفعل .. لقد زرتهم من قبل ، وأكرموا وفادتك ، وأحسنوا ضيافتك كما أخبرتنى ، وكانوا يتعاملون معك طوال الوقت كما لو كنت واحدا منهم ، واليوم يقولون إنهم يحتاجون إليك ، فكيف يمكنك الرفض ؟!

تراجع فى مقعده ، وهو يتأملها فى اهتمام ، ثم عقد ساعديه أمام صدره ، وسألها :

ـ وماذا عن المقابل المادى ؟

انعقد حاجباها ، وهى تجيب :

ـ لا يمكنك المطالبة بقرش واحد بالطبع .

سألها فى اهتمام :

ـ ولكنك كنت شديدة الحماس فى المرة السابقة ، عندما عرضوا علىّ خمسة آلاف جنيه .

أجابته فى حزم :

ـ الخمسة آلاف جنيه كانت أجرًا لعمل تقوم به ، أما فى هذه المرة ، فمن العار أن يتقاضى الصديق أى مقابل ، لقاء خدمة يقدمها لصديقه .

ران عليهما الصمت بضع لحظات ، بعد عبارتها الأخيرة ، ثم لم يلبث (أحمد) أن ابتسم ابتسامة حانية ، وهو يغمغم :

ـ نفس ما توقعته منك بالضبط .

ثم مال نحوها بحركة مباغتة ، مستطردًا :

ـ (ليلى) .. هل تتزوجيننى ؟!

اتسعت عيناها فى دهشة ، وتخضب وجهها بحمرة الخجل ، وهى تغمغم :

ـ أتزوجك ؟!

قال بسرعة ، وكأنما يخشى أن يفقد شجاعته ، لو توقف لحظة واحدة :

ـ نعم يا (ليلى) .. أنا أحبك منذ فترة طويلة ، وأتمنى أن تصبحى زوجتى .. ما رأيك ؟!

تضاعفت حمرة الخجل فى وجهها ، وارتبكت ابتسامتها على شفتيها ، وانخفض بصرها إلى ما بين قدميها ، قبل أن تنهض قائلة فى اضطراب :

ـ سنناقش هذا بعد عودتك .

قالتها ، وأسرعت إلى الباب ، فهب من مقعده ، يسألها فى لهفة :

ـ هل أعتبر هذا رفضًا أم إيجابًا ؟

التفتت إليه ، وأضاء وجهها كله بابتسامة عذبة ، تفيض بالخجل والحياء ، وهى تقول :

ـ بعد عودتك .

وتهللت أساريره ، وهى تعدو مبتعدة فى خجل ، ورقص قلبه طربا ، وهو يهتف :

ـ أستاذ (نجيب) .

أطل (نجيب) بوجهه من الباب المفتوح ، وعيناه تحملان تساؤلا ، فتابع (أحمد) فى حماس :

ـ أما زلت تحتفظ بالتذكرتين ؟

وتهللت أسارير (نجيب) بدوره ..

* * *

« لقد وصلنا تقريبا .. »

نطق (نجيب) الكلمة ، فى صوت أقرب إلى الهمس ، ففتح (أحمد) عينيه ، واعتدل على مقعده ، داخل السيارة القديمة ، التى تنقلهما إلى القرية ، وفرك عينيه الناعستين ، مغمغما :

ـ يبدو أننى استغرقت فى النوم قليلا .

ابتسم (نجيب) ابتسامة مشفقة ، وهو يقول :

ـ إنك مستغرق فى النوم ، منذ ركبنا السيارة .

تمتم (أحمد) فى إرهاق :

ـ حقا ؟!

قالها ، وهو يتطلع إلى القرية ، التى بدت مهيبة ، مع غروب الشمس ، الذى يلقى فيها مئات الظلال ، التى انفردت فوق طرقها

الممهدة ، والسيارة تتهادى فوقها فى خفة ، جعلت (أحمد) يقول :

ـ كيف مهدتم هذه الطرق ؟

ابتسم (نجيب) ، مجيبا :

ـ إنها فكرة من ابتكار الحاج .. لقد سوينا الأرض بألواح خشبية كبيرة تجرها الدواب ، ثم غمرناها بأحجار صغيرة ، من الجبال المحيطة ، وتركنا للسيارات الزائرة مهمة تمهيد الطرق .

هز (أحمد) رأسه ، قائلا :

ـ من الواضح أن الحاج بالغ الذكاء فى هذا الشأن .

أومأ (نجيب) برأسه موافقا ، وهو يقول :

ـ هذا ليس ابتكاره الوحيد ، فقد صنع خزانات ضخمة ، لاحتواء مياه الأمطار ، واستخدامها فى الشرب والطهى ، وأمد منازلنا بشبكة من الأنابيب المطاطية ، التى تنقل إلينا الماء وقتما نريد .

سأله (أحمد) فى دهشة :

ـ ألم تمتد إليكم مشاريع توصيل المياه الحكومية ؟!

ارتسمت على شفتى (نجيب) ابتسامة حزينة ، وهو يقول :

ـ الحكومة نقلتنا من قريتنا إلى هنا ، ثم نسيت أمرنا تماما ، فلم تدرج قريتنا ضمن مشاريع الكهرباء أو المياه ، أو حتى الوحدات الصحية والاجتماعية .

قال (أحمد) فى حماس :

ـ اطمئن يا صديقى .. لن يدوم هذا إلى الأبد .. سأتبنى قضية قريتكم ، وسأبلغ الأمر للمسئولين ، من خلال المجلة ، و ...

قاطعه السائق بغتة ، وهو يتحدث مع (نجيب) باللغة النوبية ، فألقى هذا الأخير نظرة على المرآة الجانبية للسيارة ، قبل أن يربت على كتف السائق ، ويجيبه باللغة نفسها ، ثم يعود إلى (أحمد) ، الذى سأله فى قلق :

ـ ماذا هناك ؟

ابتسم (نجيب) ، قائلا :

ـ لا شىء يا أستاذ (أحمد) .. اطمئن .

لم يرتح (أحمد) للجواب ، وأيقن من حدوث أمر ما ، يخفيه عنه (نجيب) والسائق ، ولكن قبل أن ينشغل بالتفكير فى هذا ، لاحت له ساحة القرية ، التى يقف فيها كبارها كالمعتاد ، وعلى رأسهم الحاج ، بابتسامته العذبة المشرقة ، فهتف فى حماس :

ـ ها هو ذا الحاج .

ابتسم (نجيب) لحماسه ، ولاذ بصمت مطبق ، حتى توقفت السيارة أمام الحاج ، الذى استقبل (أحمد) بابتسامة كبيرة ، قائلاً وهو يصافحه فى حرارة :

ـ مرحبًا بالصديق .

مال (نجيب) على الحاج ، وتحدث معه قليلا باللغة النوبية ، فهزّ الحاج رأسه ، وهو يقول بالعربية :

ـ لا بأس .. لا بأس .. كل شىء على ما يرام .

ثم وضع يده على كتف (أحمد) ، قائلا :

ـ تعال أيها الصديق ، فلدى ما أتحدث به معك .

سار (أحمد) إلى جواره صامتًا ، حتى ضمتهما حجرة فى

منزل الحاج ، وتناول الاثنان طعامهما ، وهما يديران حديثًا وديًا ، ثم جاءت أكواب الشاى ، فارتشف الحاج رشفة من كوبه ، وهو يتطلع إلى (أحمد) ، وقال :

ـ أظنك تتساءل : لماذا طلبت منك الحضور إلى هنا ثانية ؟

أومأ (أحمد) برأسه إيجابًا ، وهو يرتشف الشاى بدوره ، فهز الحاج رأسه ، وقال :

ـ من حقك أن تفعل .. لقد أديت عملك ، الذى أثار ولا ريب الكثير من الحيرة والشكوك فى نفسك ، وجعلك تتساءل عن سر احتفاظنا بذلك الأثر الفرعونى القديم ، وعن سبب طلبنا الرسوم ، وتركها لديك بعد الانتهاء منها ..

ثم تنهد ، مستطردًا :

ـ ولقد ناقشنا الأمر ، ووجدنا أنك ، كصديق ، تستحق أن تشاركنا سرنا .

ومال نحوه ، مضيفًا فى حزم :

ـ والآن ، سأروى لك سر الصندوق .. صندوق الشمس .

وكانت مفاجأة لـ (أحمد) ..

مفاجأة مدهشة .

* * *

٦- القبر ..

حدّق (أحمد) طويلا فى وجه الحاج ، الذى تراجع فى هدوء ، وهو يلتقط نفسًا عميقًا ، ويقول فى هدوء :

ـ منذ ما يزيد قليلا على ثلاثين عامًا ، وبالتحديد فى شتاء عام ١٩٥٩م ، لم تكن قريتنا فى هذا المكان ، وإنما كانت تحتلّ منطقة أخرى ، لم يعد لها وجود الآن ، وإنما اختفت تمامًا تحت ما يعرف اليوم ببحيرة (ناصر) .. المهم أنه ذات يوم ، فى ذلك التاريخ ، فوجئت القرية بغريب يفد إليها ، فى حالة مزرية ، ويسقط بين ذراعى كبيرها ، وهو يحتضر .. وكعادتنا ، أولينا الرجل جلّ اهتمامنا ، وحاولنا إنقاذه وإسعافه ، إلا أنه لفظ أنفاسه الأخيرة ، بعد أن سلمنا رقعة من الجلد ، تحوى خريطة ما ، وإحداثيات لم نفهمها آنذاك ، وبعد أن أشار إلى أنه رأى الشمس تشرق داخل صندوق قديم ..

وصمت لحظة ليلتقط أنفاسه ، قبل أن يتابع :

ـ ولسبب ما ، احتفظنا بالخريطة المرسومة على الرقعة الجلدية ، وسلمنا باقى متعلقاته للشرطة ، و ...

بتر عبارته بغتة ، وكأنما يبحث عن كلمات مناسبة ، أو يستشير عقله فيما ينبغى الإفصاح عنه ، قبل أن يقول :

ـ وبوساطة الخريطة ، وبعد بحث ودراسة استغرقا ثلاث سنوات كاملة ، عثرنا على المقبرة ، التى تضمّ صندوق الشمس .

قال (أحمد) فى انفعال :

ـ ولكنكم لم تبلغوا المسئولين .

هزّ الحاج كتفيه ، وقال :

ـ كان فى نيتنا أن نفعل ، لولا ما حدث .

سأله (أحمد) فى لهفة :

ـ وماذا حدث ؟!

أجابه الحاج :

ـ عندما وصلنا إلى المقبرة ، كان الصندوق مفتوحًا ، ولدينا قناعة بأن ذلك الغريب هو الذى فتحه ، فقد كان هناك مصباح ما داخله ، يشعّ ضوءًا مبهرًا ، حتى ليكاد يشبه ما وصفه ذلك الغريب ، بقوله : إنه شاهد الشمس تشرق داخل الصندوق ، وكانت المقبرة كلها مضاءة بذلك الضوء المبهر ، حتى لم تعد هناك قيمة لمشاعلنا ، وجعلنى المشهد مبهورًا مشدوهًا ، حتى أننى اتجهت إلى الصندوق كالمسحور ، ومددت يدى أمسك ذلك المصباح ، و ...

انتفض جسده كله فى عنف ، وهو يستعيد تلك الذكرى ، وارتجفت شفتاه ، وضاقت حدقتاه فى انفعال ، حتى خُيّل لـ (أحمد) أنها أعنف ذكرى فى حياة الحاج كلها ، فتمتم فى فضول مغموس فى اللهفة :

ـ وماذا يا حاج ؟

لوّح الحاج بيده ، وزاغت عيناه ، وهو يقول :

ـ أصابنى ما يشبه الصاعقة ، وسرت فى جسدى طاقة هائلة . فلم أذكر سوى أننى أطلقت صرخة هائلة عظيمة ، ثم أفقت بعدها لأجد نفسى راقدا فى منزلى ، وحولى زوجتى وأبنائى ، وعدد من كبار القرية ، يتطلعون إلىّ فى هلع وإشفاق ..

وازدرد لعابه ثانية ، وهو يهز رأسه ، وكأنما ينفض عنها الجزء المؤلم من الذكريات ، قبل أن يتابع :

ـ لم أنتبه إلى أية تغيرات فى جسدى يومئذ ، ولا فى الأيام التالية ، ولكننى لاحظت أن التميمة المصنوعة من الرصاص ، والتى كنت أحملها دائما فى جيبى ، قد تحوّلت إلى قطعة من الذهب .

اتسعت عينا (أحمد) ، وهو يهتف :

ـ آه .. حلم الكيميائيين !.. تحويل الرصاص إلى ذهب .

أومأ الحاج برأسه إيجابا ، وهو يقول :

ـ نعم .. الطاقة التى تضىء ذلك المصباح الأبدى ، كانت لديها القدرة على تحويل الرصاص إلى ذهب ، ولكن بكميات محدودة ، ولفترات محدودة من العام .

وتنهّد مرة أخرى ، قبل أن يتابع :

ـ وعندما درسنا الموقف ، وقرّرنا الحفاظ على سر صندوق الشمس ، واستخدام قدرته المدهشة على تحويل الرصاص إلى ذهب ، فى تمويل مشروعات تطوير قريتنا ، فوجئنا بقرار تهجيرنا إلى قرية بديلة ، لأن قريتنا ستغرق تحت مياه النيل ، بعد تحويل

مجراه ، وإنشاء بحيرة (ناصر) الصناعية ..

ارتفع حاجبا (أحمد) فى تأثّر ، وهو يقول :

ـ يا للخسارة !

أطلّ الأسف من عينى الحاج ، وهو يقول :

ـ وبالفعل ، تم تهجيرنا إلى قرية بديلة ، وغرقت قريتنا بالكامل ، وانقطع الطريق بيننا وبين المقبرة وصندوق الشمس .

ثم انعقد حاجباه فى حزم ، مستطردا :

ـ ولكننا لم نيئس .

قال (أحمد) فى حماس :

ـ هذا واضح .

تابع الحاج فى انفعال :

ـ كان من الضرورى أن نصل إلى صندوق الشمس ، وأن نستفيد بقدرته على إنتاج الذهب من الرصاص ، حتى يمكننا الإنفاق على مشروعات تطوير قريتنا ، وتعليم أبنائها ، وخاصة بعد أن أهملت الدولة شئوننا ، ونسيت أو تناست وجودنا ، وأصبحنا فى حالة يرثى لها ..

واعتدل فى اعتداد ، وهو يضيف :

ـ وقرّرنا الوصول إلى المقبرة بأى ثمن .

قال (أحمد) فى حماس :

ـ ومن الواضح أنكم نجحتم فى هذا .

ابتسم الحاج ، قائلا :

ـ لم يكن هذا سهلا أو هينا .. لقد احتاج منا إلى عشرين عاما من العمل الشاق المتواصل ، قمنا به جنبا إلى جنب مع الجهود الذاتية لتطوير قريتنا ، وتحسين سبل العيش فيها ، فى محاولة لرأب الصدع ، بين تجاهل الدولة لنا ، ورغبتنا فى حياة كريمة آمنة .

وتنهّد فى ارتياح ، وهو يتابع :

ـ وأخيرا وصلنا إلى المقبرة ، التى أطلقنا عليها اسم مقبرة الشمس .

وتهلّلت أساريره ، مع استطراده :

ـ كان الضوء مازال يغمرها ، من ذلك المصباح الدائم ، ولكن ألوان النقوش بهتت إلى حد ما بسببه ، مما أصابنا بالقلق ، فاختبرنا قدرة طاقة المصباح ، باستخدام قطع صغيرة من الرصاص ، فتحوّلت إلى ذهب خالص بعد أسبوع واحد من التعرّض لضوئه المبهر .

وابتسم ، مضيفا :

ـ وهكذا عادت عجلة التحسّن والتطوير تدور ، وبدأنا مشروعا لمد القرية بالتيار الكهربى على نفقتنا الخاصة ، وإقامة مركز طبى ، ومدرسة ، ومكتبة عامة .

ثم تلاشت ابتسامته ، وهو يقول فى أسى :

ـ ولكن مشروعنا هذا لم يكتمل للأسف .

سأله (أحمد) فى انزعاج :

ـ كيف ؟!

تنهّد ، وهزّ رأسه فى أسف ، قائلا :

ـ لسبب أبسط مما تتصوّر .. كنا نضع بعض قطع الرصاص ، عندما فقد أحدنا توازنه ، فسقط فوق الصندوق .

هتف (أحمد) مذعورا :

ـ وحطّم المصباح .

هزّ الحاج رأسه نفيا ، وهو يقول :

ـ كلاّ .. لم يصل الأمر إلى هذا الحد والحمد للّه (سبحانه وتعالى) ، ولكن سقوط الرجل على الصندوق أغلقه .

سأله (أحمد) فى حيرة :

ـ وماذا فى هذا ؟

تطلّع إليه الحاج فى صمت ، قبل أن يقول :

ـ لم يمكننا إعادة فتحه قط .

ارتفع حاجبا (أحمد) ، وهو يهتف فى دهشة :

ـ حقا ؟!

أجاب الحاج فى أسف :

ـ من الواضح أنه لا يفتح بالطرق العادية ، وأن له رتاجا سريا نجهله ، فقد استغرقنا خمس سنوات كاملة فى محاولة فتحه ، إلا أننا فشلنا تماما .

سأله (أحمد) فى اهتمام :

ـ ألم تحاولوا استخدام القوة ؟!

رفع الحاج حاجبيه ، وهو يقول فى استهجان :

ـ القوة ؟!.. القوة مع صندوق كهذا ؟!.. لا أحد يجرؤ على اللجوء إلى القوة الغاشمة ، فى مثل هذه الظروف يا أستاذ (أحمد) ، فمن يدرى ما الذى يمكن أن يحدث عندئذ ؟!.. ربما انفجر الصندوق بكل محتوياته ، أو فقد طاقته أو فاعليته .. من يدرى ؟!

تنهّد (أحمد) ، وهو يومئ برأسه متفهمًا ، ويغمغم :

ـ أنت على حق .

صمت الحاج بضع لحظات ، ليلتقط أنفاسه ، قبل أن يقول :

ـ ولهذا دعوناك لترسم الصندوق .

قال (أحمد) فى دهشة :

ـ وما صلة هذا بذاك ؟!

أجابه الحاج فى هدوء :

ـ كنا واثقين من أن الموقف كله سيثير حيرتك ودهشتك ، وخاصة عندما ننقدك أجرك ، دون أن تأخذ الرسوم ، وأن حيرتك هذه ستدفعك إلى القيام بالخطوة الوحيدة المنطقية .. أن تنشر أحد الرسوم .

انعقد حاجبا (أحمد) فى شدة ، وهو يقول غاضبًا :

ـ إذن فقد كنت بالنسبة لكم مجرّد فأر تجارب ، يجرى فوق متاهة أعددتموها بدقة ، وأنتم تدركون أنه سيتخذ المسار الذى يروق لكم منها .

خفض الحاج عينيه ، وهو يقول :

ـ أستاذ (أحمد) .. لقد طلبت حضورك شخصيًا ، لنقدّم لك اعتذارنا مما فعلناه بك ، ولكن لم يكن من المنطقى أن نمنحك كل ثقتنا دفعة واحدة ، ونحن لا نعرف عنك إلا أقل القليل ، ثم إننا كنا نريد منك أن تتحرك بمنتهى التلقائية ، والسبيل الوحيد إلى هذا هو أن يحاط الموقف كله بنوع من الغموض ، الذى يستفز حماسك ، ويدفعك إلى التفكير والعمل ، حتى تعثر على الشخص الذى يعرف طبيعة الصندوق ، من الرسم المنشور فى المجلة ، فيسعى إليك بنفسه .

هتف (أحمد) :

ـ الدكتور (بيشوب) .

لم يكد ينطقها ، حتى انبعث صوت يقول بالأمريكية فى صرامة :

ـ فى خدمتك أيها المخادع .

التفت (أحمد) والحاج إلى مصدر الصوت ، ثم شهق الأول فى دهشة ..

فأمام عينيه مباشرة ، كان هناك مسدس ضخم مصوّب إليهما ، وخلفه يقف آخر رجل يتوقّع رؤيته فى هذا المكان ..

(بيشوب) ..

الدكتور (جون بيشوب) ..

* * *

لثوان ران صمت ثقيل على المكان ، و (أحمد) والحاج يحدقان فى فوهة المسدس المصوّبة إليهما ، قبل أن يهتف (أحمد) :

فأمام عينيه مباشرة ، كان هناك مسدس ضخم مصوَّب إليهما ، وخلفه يقف آخر رجل يتوقَّع رؤيته فى هذا المكان ..

ـ كيف وصلت إلى هنا ؟!

هزَّ (بيشوب) كتفيه ، وهو يجيب فى استهتار :

ـ لم يكن الأمر صعبًا كما تتصوَّر .. لقد شاهدت ذلك النوبى فى مكتبك ، وأدركت على الفور أنه واحد من الذين استعانوا بك ، لرسم ذلك الصندوق ، مع نموذج مركب الشمس ، لذا فلم أرحل ، ولم أعد إلى الفندق ، وإنما تبعتكما إلى المطار ، واستقللت الطائرة معكما ، فى الدرجة الأولى ، وعندما وصلنا إلى (أسوان) كنت قد تركت سيارتى (الجيب) فى المطار لحسن الحظ ، فتبعتكما بها إلى هنا ، وعبرت شوارع هذه القرية السخيفة ، التى تخلو من المارة مع غروب الشمس ، فلم يعترضنى أحد ، حتى وصلت إلى منزل الحاج ، وسمعت كل ما دار بينكما .

سأله الحاج فى اهتمام :

ـ إذن ، فأنت تعرف صندوق الشمس جيدًا .

أشار إليه (بيشوب) فى حدة ، مجيبًا :

ـ يا له من قول !.. إننى أعرف ذلك الصندوق بأكثر مما أعرف نفسى أيها المأفون .. لقد درسته طوال ما يقرب من عشر سنوات كاملة .

ارتفع حاجبا (أحمد) فى دهشة ، عندما ارتسمت على شفتى الحاج ابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

ـ عظيم .. أنت الشخص الذى نبحث عنه .

هتف (بيشوب) فى سخرية :

ـ هكذا ؟!.. أنتم سعداء الحظ إذن ، فهأنذا ، وأنتم ستقودوننى الآن إلى المقبرة ، التى تحوى صندوق الشمس .

أجابه الحاج فى صرامة :

ـ ليس قبل أن تلقى مسدسك هذا جانبًا .

انعقد حاجبا (بيشوب) فى غضب ، وهو يلوّح بمسدسه ، هاتفًا :

ـ اسمع أيها المخرّف .. لست فى موقف يسمح لك بإملاء أوامرك ، ولا حتى بالتفاوض .. انظر إلى هذا المسدس ، وستدرك أننى أسيطر على الموقف تمامًا ، وأنك مضطر لطاعة أوامرى .

اتسعت ابتسامة الحاج ، وهو يقول فى هدوء مثير :

ـ أتظن هذا حقًا ؟!

لم يكد ينطقها ، حتى انفتحت كل نوافذ وأبواب الحجرة ، وظهر من خلفها جيش من شباب القرية ورجالها ، يحمل كل منهم عصا غليظة ، ونظرة صارمة حازمة ، ارتجفت لها أطراف (بيشوب) ، وهو يدور بمسدسه مذعورًا ، ويهتف :

ـ مُرهُم بالتراجع يا حاج .. مُرهُم بالتراجع وإلا أطلقت النار .

عقد الحاج كفيه أمامه ، وهو يقول بإنجليزية سليمة :

ـ وكم رصاصة ستطلق ، قبل أن تفرغ خزانة مسدسك يا رجل .. ثمانى .. عشرًا .. أو حتى عشرين ؟! فى النهاية سيتبقى منا ما يكفى حتمًا لسحق عظامك ، قبل أن تحقق حلمك برؤية صندوق الشمس .

دار (بيشوب) حوله فى اضطراب ، وقد احتقن وجهه ، وأطلّ احتقانه عبر عينيه الحمراوين ، فى حين تابع الحاج فى هدوء شديد :

ـ ألم تسأل نفسك لماذا كانت شوارع القرية خالية ؟.. هل تصوّرت أن (نجيب) وسائق السيارة لم ينتبها لمطاردتك لهما طوال الطريق ؟..

خطأ يا رجل .. خطأ .. حتى وأنا أروى القصة لصديقنا الأستاذ (أحمد) ، كنت أعلم أنك خلف النافذة ، تسترق السمع .

عضّ (بيشوب) شفتيه قهرًا وغيظًا ، قبل أن يخفض مسدسه ، هاتفًا :

ـ اللعنة !

أشار الحاج إلى أحد رجاله ، فأسرع ينتزع المسدس من يد (بيشوب) ، فى حين هتف (أحمد) فى غضب :

ـ أنت أحقر خبير آثار قابلته ، فى حياتى كلها .

هتف (بيشوب) فى حدة :

ـ بل أنا أعظم خبير آثار التقيت به فى حياتك يا فتى ، وستفخر يومًا بأنك صافحتنى .

قال (أحمد) فى حنق :

ـ أتعشّم ألا يأتى ذلك اليوم أبدًا .

صاح (بيشوب) فى ثورة :

ـ أنت غبى .. غبى مثلهم .. لقد عثروا على صندوق يحوى أعظم أسرار المجرّة(*) ، ثم انبهروا بقدرة طاقته على تحويل

(*) المجرّة : المجموعة الكبرى للنجوم والسدم ، بين الأرض والمجرات الخارجية ، تحتوى على ثلاثين ألف مليون نجم ، فضلاً عن المجموعة الشمسية ، أكثرها فى منطقة عريضة ، تشبه طريقًا أبيض فى السماء ، يطلق عليه اسم الطريق اللبنى ، أو سكة التبّانة ، والسبب فى ذلك انبساط شكل المجرّة ، وموقع الأرض بعيدًا عن مركزها.

الرصاص إلى ذهب ، ونسوا أن الأسرار الأخرى تفوق الذهب بألف مرة .

قال الحاج فى هدوء :

ـ نحن نعلم أن الصندوق يحوى أسرارًا رهيبة ، ولكننا نخشَى أن تقع فى يد بشرى ، فيطغى ويتجبّر ، ويتصوّر أنه مَلَك العالم فى قبضته ، والقوة المطلقة مفسدة ، وربما يكون فيها خراب الأرض كلها .

صاح به (بيشوب) فى غضب :

ـ ليس من حقك أن تقرّر .. ليس من حقك أن تتخذ قرارًا كهذا .

ابتسم الحاج ، قائلا :

ـ بل من الأفضل أن يتخذه شخص مثلى ، لا يطمح إلى القوة أو النفوذ ، وكل ما يطمح إليه هو حياة كريمة لائقة لقومه .

صرخ (بيشوب) فى ثورة :

ـ خطأ .. خطأ .. الشخص الوحيد ، الذى يمكنه اتخاذ قرار كهذا هو أنا .. أنا وحدى .. أنا صاحب الحق الوحيد فى كل أسرار وطاقة صندوق الشمس .. أنا الذى قضيت عمرى كله فى البحث عنه .. أنا .. أنا .. أنا ..

قال الحاج فى حزم :

ـ وماذا عنا ؟

صاح به (بيشوب) :

ـ أنتم مجرّد لصوص .. لقد سرقتم الخريطة من خالى (سام سيمونز) .

قال الحاج فى غضب :

ـ إننا لم نسرقها .. الرجل سلمنى إياها بنفسه ، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ولم يطلب منى تسليمها إلى أى كائن كان .

اتسعت عينا (أحمد) ، وهو يهتف فى دهشة :

ـ سلّمك إياها ؟!.. هل تعنى أنك ...

لم يستطع إكمال عبارته ، ولكن الحاج شدّ قامته ، وهو يجيب :

ـ نعم .. أنا الحاج (جمال) .. كبير القرية منذ زمن طويل .. طويل للغاية .

اتسعت عينا (بيشوب) فى ذهول ، وهو يقول :

ـ الحاج (جمال) ؟!.. ولكن هذا مستحيل !.. الحاج (جمال) كان فى الخامسة والثمانين من عمره ، عام ١٩٥٩م ، ولو أنك هو ، فهذا يعنى أنك ..

قاطعه الحاج فى حزم :

ـ أننى تجاوزت المائة عام بخمس عشرة سنة أو يزيد .

حدّق (أحمد) فيه ذاهلا ، قبل أن يهتف :

ـ ولكن هذا مستحيل !.. إنك تبدو كما لو أنك لم تتجاوز الستين من العمر بعد .

أومأ الحاج برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ هذا صحيح يا ولدى ، ولكنه تأثير تلك الطاقة الهائلة ، للمصباح دائم الإضاءة .. إننى لم أدرك تأثيره مباشرة ، عندما استعدت وعيى ، بعد أن أعادنى الرجال إلى منزلى ، ولا فى الأيام التالية ، ولكننى بدأت أنتبه إليه مع مرور الأيام والشهور

والسنين ، عندما لاحظت أن كل رفاقى يشيخون ويهرمون ويموتون ، فى حين أظل أنا قويا صحيحا ، وكأنما لا يمضى بى الزمن قط ، كما أن طاقتى فى العمل ظلت أكبر حتى من شباب القرية .

هتف (بيشوب) مبهورا :

ـ الخلود .. لقد كشفت سر الخلود .

هز الحاج (جمال) رأسه نفيا ، وهو يقول :

ـ الخلود لله وحده يا ولدى .. كل ما حدث لى هو أن عوامل التقدم فى السن تراجعت لبعض الوقت ، وأشعر بها تعود لتهاجمنى فى هذه الأيام ، بشراسة أكبر من ذى قبل .

قال (أحمد) مبهوتا :

ـ ولكنك تبدو سليما معافى .

ابتسم الحاج فى أسى ، قائلا :

ـ ظاهريا فحسب يا ولدى .. ظاهريا فحسب .

هتف (بيشوب) :

ـ ولماذا لا تتزود بالطاقة ثانية ؟!.. لماذا لم يفعل الجميع هذا ؟

هز الحاج رأسه ، قائلا :

ـ لم يفلح هذا إلا معى فحسب ، ويبدو أن هذا لا يحدث إلا بعد أن تظل طاقة المصباح محبوسة لسنوات طوال ، وعندما يتم استهلاكها ، عبر جسد ما ، تنتفى منها هذه السمة على الفور .

عض (بيشوب) شفتيه قهرا ، وهو يهتف :

ـ يا للخسارة !.. يا للخسارة !

ثم استطرد فى لهفة :

ـ ولكننى أريد رؤية تلك المقبرة .. أريد رؤية صندوق الشمس ، والمصباح الذى لا ينطفئ أبدا .

رمقه الحاج (جمال) بنظرة طويلة ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ ستراه يا رجل .. ستراه .

سأله فى لهفة أكثر :

ـ متى ؟.. متى يمكننى رؤيته ؟

تعلقت الأبصار كلها بالحاج (جمال) ، الذى لاذ بالصمت بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى حذر وحسم :

ـ الآن ..

وانتفض قلب (بيشوب) فى عنف ..

* * *

سرى توتر واضح فى جسد (أحمد) ، والرجال يقودونه مع (بيشوب) معصوبى الأعين ، عبر ذلك الطريق المجهول إلى مقبرة الشمس ..

وفى هذه المرة ، حاول جاهدا أن يدرس الموقف ، باستخدام كل حواسه الأخرى ..

كان على الرغم من العصابة على عينيه ، يستطيع تمييز نيران المشاعل ، التى يحملها الرجال ..

ولم تكن تلك النيران تهتز على نحو كاف ، كما أنه لا يشعر بهبات النسيم على وجهه ..

وهذا يعنى أنهم يسيرون عبر نفق ما ..

وللتأكد من صحة استنتاجه ، راح يسعل بصوت مرتفع ، وهو يصغى جيدًا إلى صدى سعاله ، الذى تردد على نحو منتظم ، كما يحدث عادة فى الأماكن المغلقة ..

أما (بيشوب) ، فقد سأل فى عصبية :

ـ أين نسير بالضبط ؟

جاوبه صمت مطبق ، زاد من حنقه وتوتره ، فصاح :

ـ سألتكم أين نحن ؟!

تردد صدى الصوت على نحو واضح ، جعله يهتف :

ـ آه .. إننا داخل نفق ما .. لقد حفرتم نفقًا للوصول إلى المقبرة .. هذا ما فعلتموه طوال العشرين عامًا .

قالها ، وهو يتلفت حوله فى عصبية ، فارتطمت يده بجدار النفق ، وشعر برطوبته وبقطرات الماء المعلقة عليه ، فاستطرد :

ـ وهذا النفق يمتد تحت مياه البحيرة .. أليس كذلك ؟

مرة أخرى جاوبه صمت مطبق ، جعله يصرخ :

ـ لماذا تتجاهلوننى ؟

أجابه (أحمد) فى توتر :

ـ ماذا كنت ستفعل ، لو أنك فى موضعهم ، ورجل يصر على إقناعك بكشف سرك له ؟

صاح (بيشوب) :

ـ ليس هذا من حقهم .. ليس من حقهم أبدًا .

تنهد (أحمد) ، قائلا :

ـ من الواضح أنه ما من جدوى من مناقشة هذا الأمر معهم .

انعقد حاجبا (بيشوب) فى غضب ، وهو يقول :

ـ سيدفعون الثمن .. سيدفعونه غاليًا .

كانوا يسيرون منذ نصف الساعة تقريبًا ، فيصعدون ويهبطون ، وينحرفون إلى اليمين تارة ، وإلى اليسار تارة ، و ...

وأخيرًا ، ارتفع صوت الحاج ، وهو يقول فى هدوء :

ـ وصلنا .

لم يكد ينطقها ، حتى رفع (بيشوب) العصابة عن عينيه ، وأطلق شهقة قوية ، وهو يحدق فى ذلك الصندوق ، الذى يحمل فوقه أروع نموذج لمراكب الشمس رآه فى حياته كلها ..

وفى انبهار شديد ، راح (بيشوب) يدور فى المقبرة ، هاتفًا :

ـ إذن فهى حقيقة .. القصة كلها حقيقية .. بردية (أحمس) لم تكن كاذبة أو خيالية .. إنها حقيقة .. حقيقة .

ثم ألقى نفسه على الصندوق ، وركع أمامه يتحسسه فى انبهار ، والحاج (جمال) يسأله فى اهتمام :

ـ هل يمكنك أن تفتح الصندوق ؟

التفت إليه (بيشوب) ، هاتفًا :

ـ أليك شك فى هذا ؟

ثم خفض يديه ، وضغط جزءًا من النقوش ، على الجانب الأيمن للصندوق ، ويده الأخرى تدير نقشًا ثانيًا ، فى الجانب الأيسر منه ، وبعدها دفع واجهة الصندوق ، من طرفها الأيسر العلوى ، وهو يقول فى انبهار :

ـ كل شىء مذكور فى بردية (أحمس) .

ثم ألقى نفسه على الصندوق ، وركع أمامه يتحسّسه فى انبهار ..

وأخيرًا تراجع خطوة ، وضغط اسم (بى ـ دو) بكفيه ، و ...
وانفتح الصندوق ..

ومع القدر الضئيل من الفراغ ، الذى نشأ بين الصندوق والغطاء ، انبعث ضوء مبهر ، كما لو أن الشمس تشرق بالفعل من قلب الصندوق ..

وبكل لهفته ، رفع (بيشوب) الغطاء قليلا ..

وغمر الضوء المبهر المكان كله ..

وهتف (بيشوب) ، وهو يطلق ضحكات ظافرة ، ردّدتها جدران المقبرة فى عنف :

ـ أخيرًا .. أخيرًا ظفرت بصندوق الشمس .. أخيرًا .

كان الضوء يغشى أبصار الجميع ، والحاج (جمال) يقول :

ـ إنك لم تظفر به بعد .

أطلق (بيشوب) ضحكة مجلجلة أخرى ، وهو يقول :

ـ هذا ما تظنه أيها المأفون .

وعلى الرغم من شدة الضوء ، استطاع (أحمد) تمييز ذلك الشىء ، الذى يمسك به (بيشوب) ، ويصوّبه إلى الحاج ..

وكان ذلك الشىء عبارة عن مسدس ..

مسدس كبير ، ضغط (بيشوب) زناده ، وهو يقول :

ـ الوداع أيها المخرّف .

ودوت الرصاصة فى المقبرة القديمة ..

مقبرة الشمس .

* * *

٧ ـ وداعًا (بى ـ دو) ..

طوال عمله كرسّام صحفى ، وعلى الرغم من الشهرة الواسعة التى نالها ، من خلال رسمه لأغلفة وصفحات سلسلة الحركة الشهيرة (رجل المخاطر) ، إلا أن (أحمد ضرغام) لم يتخيّل نفسه قط فى مواجهة مسدس حقيقى ، ولم يتصوّر أبدًا أن باستطاعته التعامل مع شخص يحمله ..

ولكن من المؤكد أن المواجهة الفعلية تختلف كثيرًا عن التصوُّر والخيال ..

فلم يكد (أحمد) يلمح ذلك المسدس ، الذى يصوّبه (بيشوب) إلى الحاج (جمال) ، حتى وجد نفسه ينقضّ على الأمريكى ، هاتفًا :

ـ احترس يا (حاج) .

وفى نفس اللحظة ، التى ارتطم فيها جسده بجسد (بيشوب) ، انطلقت الرصاصة ..

وانطلقت صيحة ألم من بين شفتى الحاج (جمال) ..

وبكل ما يملك من قوة ، هوى (أحمد) بقبضته على فك (بيشوب) ، هاتفًا :

ـ أيها الوغد الحقير .. كنت تخفى مسدسًا ثانيًا .

قاومه (بيشوب) فى شراسة ، وهو يصرخ :

ـ أيها الغبى .. لست تفهم شيئًا .. إنهم لا يستحقون ما حصلوا عليه .. لا يستحقونه أبدًا .

ودفع (أحمد) بعيدًا ، ثم هبّ واقفًا على قدميه ، وهو يصوّب إليه مسدسه صارخًا :

ـ كل هذا ملكى .. ملكى وحدى .

انتفض جسد (أحمد) ، وهو يغلق عينيه فى قوة وتصوَّر أن الرصاصة ستخترق رأسه بلا ريب ، إلا أنه سمع ضربة مكتومة ، وصرخة تأوّه قوية ، أعقبها صوت سقوط جسد على الأرض ، ففتح عينيه فى سرعة ، ورأى أحد النوبيين ممسكًا عصاه ، وأمامه (بيشوب) على الأرض فاقد الوعى ، والحاج يسرع نحوه ، ويسأله فى لهفة ، والدماء تغرق كتفه ، وتلوّث جلبابه الناصع البياض :

ـ أستاذ (أحمد) .. أأنت بخير ؟!

أدار (أحمد) عينيه فى المكان كله ، وهو يغمغم :

ـ نعم .. نعم .. أنا بخير .

عاونه الحاج على النهوض ، قائلاً :

ـ هيّا .. سنعود إلى القرية .. هيّا .

سأله مشيرًا إلى (بيشوب) :

ـ وماذا عنه ؟!

صمت الحاج (جمال) لحظة ، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامته الهادئة المعهودة ، وهو يجيب :

ـ أظنه سيشعر بندم شديد عندما يستعيد وعيه .

حاول (أحمد) النهوض ، إلا أن قدمه انزلقت فى ضعف ، فقال :

ـ لست أدرى ماذا أصابنى ؟!. يبدو أننى ..

ثم مادت به الأرض ، وأظلمت الدنيا أمام عينيه ، وهو يهتف :

ـ ربّاه !.. ماذا فعلتم بى ؟

أجابه الحاج فى اهتمام :

ـ لا شىء يا ولدى .. أنت مرهق .. مرهق فحسب .

وكان هذا آخر ما سمعه (أحمد) ، قبل أن يهوى فى غيبوبة عميقة ..

عميقة للغاية ..

* * *

لم يدر (أحمد) كم من الوقت ظلّ فاقد الوعى ، ولكنه استيقظ فجأة ، ليجد نفسه راقدًا فوق ذلك الفراش الوثير المريح ، فى حجرة الضيافة بمنزل الحاج (جمال) ، فاعتدل جالسًا على طرفه ، وتطلّع إلى النافذة ، التى تسللت خيوط أشعة الشمس من بين فرجاتها ، وتمتم :

ـ يا إلهى !.. هل نمت كل هذا الوقت ؟

أتاه صوت الحاج (جمال) هادئًا رصينًا ، وهو يسأله :

ـ كيف حالك الآن ؟

أدهشه أنه لم ينتبه إلى وجوده فى الحجرة فى البداية ، فالتفت إليه بسرعة ، قائلا :

ـ أفضل بكثير .

ابتسم الحاج ابتسامته العذبة ، وهو يقول :

ـ كنت مرهقًا للغاية أمس ، حتى أنك فقدت الوعى .

استعاد ذهنه كل تفاصيل حادث الأمس ، مع عبارة الحاج ، وهتف :

ـ أين (بيشوب) ؟

أشار الحاج بيده ، مجيبًا فى هدوء :

ـ لقد رحل .

ردّد (أحمد) فى دهشة :

ـ رحل ؟!

أومأ الحاج برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم .. استعاد وعيه بعد الفجر بقليل ، وأخذ يصرخ ويهدّد ويتوعّد ، مطالبًا بإعادته إلى مقبرة الشمس ، ثم لم يلبث أن انهار ، وراح يتوسّل ويتضرّع ، ولما لم يأت هذا أيضًا بنتيجة ، عاد يصرخ ويسبّ ويلعن ، ثم استقل سيارته (الجيب) ، وغادر القرية كلها فى ثورة هائلة .

سأله (أحمد) فى اهتمام :

ـ أتظنه يعود ثانية ؟!

أجابه الحاج فى هدوء :

ـ بكل تأكيد .

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة ، وهو يضيف :

ـ ولكن ليس وحده .

سأله (أحمد) فى حيرة :

ـ هل سيحضر بعض رجال العصابات مثلا ؟

ضحك الحاج ، قائلا :

ـ سترى يا ولدى .. سترى .

تطلّع (أحمد) إلى كتفه ، قبل أن يشير إليها ، قائلاً :

ـ كيف حال إصابتك ؟

صمت الحاج لحظات ، ثم استعاد ابتسامته ، وهو يكشف كتفه ، قائلاً :

ـ ما رأيك أنت ؟

كاد (أحمد) يقفز من فراشه ذاهلاً ، وهو يحدّق فى كتف الحاج ، التى لم يعد فيها من إصابته سوى خط باهت ، يشير إلى الالتئام التام للجرح ، وهتف :

ـ كيف حدث هذا ؟

اعتدل الحاج ، وهزّ رأسه ، قائلاً :

ـ لا تسألنى .. أنا نفسى أجهل السبب .

قال (أحمد) فى انفعال :

ـ من الواضح أن تلك الطاقة ضاعفت من نشاط خلاياك إلى درجة مدهشة .

ابتسم الحاج ، قائلاً :

ـ نعم .. يبدو هذا .

لم يكد يتم عبارته ، حتى ارتفع صوت أبواق سيارات شرطة ، تتجه إلى القرية ، فقال (أحمد) فى توتر :

ـ ما هذا ؟

أشار إليه الحاج فى هدوء ، قائلاً :

ـ لا تقلق يا ولدى .. كنا نتوقّع هذا .

قالها وغادر المكان فى هدوء ، ليستقبل سيارات الشرطة ، فأسرع (أحمد) يرتدى ثيابه ، ويهرع خلفه ، وعندما وصل إلى الساحة ، رأى الحاج يتحدّث مع ضابط شرطة برتبة مقدّم ، وإلى جوارهما (بيشوب) يصرخ :

ـ إنه كاذب .. هذا الرجل كاذب أيها الضابط .. لقد رأيت بنفسى مقبرة فرعونية كاملة ، ومومياوات(*) ، وآثار قديمة .. إن لديهم متحفًا كاملاً هنا .. إنهم يريدون بيعه لى ، ولكننى أعرف القانون المصرى .. أنا رجل شريف أيها الضابط .

انعقد حاجبا الضابط ، وهو يسأل الحاج (جمال) :

ـ أهذا صحيح يا حاج ؟

أجابه الحاج فى هدوء :

ـ نحن قوم شرفاء أيها الضابط ، وأنتم خير من يعرفنا .. حتى الجرائم العادية لا تحدث بيننا . ولم نحاول قط بيع أية آثار ، أو حتى عرضها للبيع .

صاح (بيشوب) :

ـ إنه كاذب .. كاذب .. فتشوا المكان ، وستعثرون على تلك الآثار حتمًا .. ستجدون مدخل نفق سرى ، أو شىء من هذا القبيل .

(*) المومياء : الجثة المحنّطة ، ويرتبط التمويم بالاعتقاد فى الحياة بعد الموت ، فيحفظ الجسد ، لكى تعود الروح إليه .

أدرك (أحمد) ما يسعى إليه (بيشوب) ، وانعقد حاجباه فى شىء كثير من القلق ، فى حين ظل الحاج على هدوئه ، والضابط يقول له :

ـ معذرة يا حاج ، ولكننى مضطر لتفتيش القرية كلها .

أشار الحاج بيده ، قائلا فى بساطة :

ـ المكان كله رهن أشارتك أيها الضابط .

انتشر رجال الشرطة فى القرية كلها ، وراحوا يفتشون كل شبر فيها ، وينقرون الجدران ، ويدقون الحوائط ، و (بيشوب) يتنقل حولهم كالمجنون ، وهو يهتف :

ـ مدخل النفق السرى فى مكان ما هنا .. أنا واثق ..

واقترب (أحمد) من الحاج ، وهمس فى أذنه بقلق :

ـ أأنت واثق من أنهم لن يعثروا على شىء .

ابتسم الحاج دون أن يجيب ، ولكن ابتسامته حملت قدرا هائلا من الثقة ، بث الارتياح فى نفس (أحمد) ، فجلس يتابع الموقف بنفس الهدوء ..

واستغرقت عملية التفتيش الدقيقة نصف النهار ، قبل أن يقول الضابط للحاج :

ـ تقبل اعتذارى يا حاج .

صرخ (بيشوب) :

ـ مستحيل !.. إنه هنا فى مكان ما .. مستحيل !

التفت إليه الشيخ فى هدوء ، وهو يقول :

ـ يبدو أنك لم تستطع التفرقة بين خيالك وواقعك يا رجل .. ولو أننى فى موضعك ، لنسيت أمر صندوق الشمس هذا ..

ثم انعقد حاجباه فى صرامة ، مع إضافته :

ـ وإلى الأبد .

اتسعت عينا (بيشوب) فى ارتياع ، وقد أدرك ما يعنيه الحاج ، وتراجع كالمصعوق ، وهو يصرخ :

ـ لا .. مستحيل !.. مستحيل !

ثم انطلق يقهقه ضاحكا فى قوة ، ويلوح بيديه ، هاتفا :

ـ لقد لمسته بيدى .. لا يمكن أن أفقده الآن .. لا يمكن أبدا ..

وأمام أعين الجميع ، راح يجرى فى القرية ، صارخا :

ـ صندوق الشمس حقيقة .. حقيقة ..

ثم يقهقه ضاحكا فى قوة ..

وكان من الواضح أن خبير الآثار الأمريكى قد أصيب بالجنون ..

الجنون المطبق ..

* * *

انطلقت زغرودة قوية ، خلف سيارة (أحمد) و (ليلى) ، التى تنطلق بهما ، فى طريقها إلى (الإسكندرية) ، لقضاء شهر العسل ، وأطلق (أحمد) ضحكة عالية ، قبل أن يضم (ليلى) إليه فى حرارة ، هاتفا :

ـ لست أصدق نفسى .. أخيرا أصبحنا زوجين .

هتفت ضاحكة :

ـ احترس أيها المجنون .. إنك تقود السيارة .

ضحك ، قائلا :

ـ اطمئنى يا زوجتى العزيزة .. بعد ما واجهته فى تلك القرية النوبية ، لم يعد هناك ما يقلقنى قط .

تملصت منه فى دلال ، وسألته :

ـ قل لى .. لماذا لم يحضر الحاج (جمال) حفل زواجنا ؟

ابتسم مجيبًا :

ـ إنه لم يعد يميل كثيرًا إلى مغادرة القرية ، فآلامه تتزايد ، ويبدو أن الخلايا التى عملت طويلا بنشاط زائد ، بدأت فى الانهيار الآن .

هزّت رأسها ، قائلة :

ـ هل تعلم ؟.. لقد حصل ذلك النوبى على ما يحلم به الكثيرون ، إلا أن هذا لم يسعده قط .

أومأ برأسه موافقًا ، وهو يقول :

ـ هذا صحيح ، فقد شرح لى كيف أنه تعذّب طويلاً ، ورفاقه يرحلون واحدًا بعد الآخر ، وامرأته تشيخ وتموت ، وكذلك أبناؤه ، فى حين يراقبهم هو يائسًا حتى من اللحاق بهم .

تنهّدت مغمغمة :

ـ سبحان الله .

ثم سألته فى اهتمام :

ـ وماذا عن (بيشوب) ؟

مطّ شفتيه ، قبل أن يجيب :

ـ لقد فقد عقله تمامًا ، وتم ترحيله إلى موطنه ، وما زال يخضع لعلاج مكثّف ، منذ ذلك الحين ، ولكنه لا يستطيع نسيان أنه رأى صندوق الشمس ، ولمسه بأصابعه .

ثم ابتسم ، مستطردًا :

ـ ولكن العجيب أن زميله المصرى الدكتور (فؤاد) تقدّم ببحث كامل حول ما يطلق عليه اسم (بردية أحمس) ، فى مؤتمر الآثار المصرية القديمة الأخير ، فى (لوس أنجلوس) ، وتضمّن بحثه هذا وصفًا كاملاً لنموذج مركب الشمس ، المصنوع من الخشب والذهب ، والمرصّع بالأحجار الكريمة ، والصندوق ذى النقوش ، واستعان بالرسوم التى وضعتها أنا ، لتوضيح شكل ذلك النموذج ، كما تضمّن البحث أيضًا دراسة مستفيضة حول نظرية الكويكبات ، وذلك العدد الهائل منها ، الذى يقع بين (المريخ) ، و (المشترى) ، ولقد أثار بحثه هذا جدلاً واسعًا فى المؤتمر ، ونشرته عشرات المجلات العلمية المتخصّصة ، وعلّق عليه عدد هائل من علماء الآثار .

والتفت إليها ، يسألها :

ـ وهل تعرفين ما الاسم ، الذى أطلقه على بحثه هذا ؟

تطلّعت إليه فى تساؤل ، فغمز بعينه ، مجيبًا سؤاله :

ـ لقد أطلق عليه اسم (لغز الكوكب العاشر) .

قالها ، وزاد من سرعة السيارة ، وهو يطلق ضحكة مرحة عالية ، شاركته إياها زوجته ، والسماء تزدان بالنجوم فوقهما ، وكأنها تشاركهما فرحتهما وسعادتهما ..

أو كأنها ترسل تحية إلى حطام ذلك الكوكب ، الذى كان يومًا أعظم كواكب المجموعة الشمسية كلها ..

الكوكب العاشر .

[تمت بحمد الله]

حلول اختبر معلوماتك

١ ـ أبو عبيدة بن الجراح .
٢ ـ هولوجراف .
٣ ـ يوهان باخ .
٤ ـ بامية .
٥ ـ الاقصر .
٦ ـ البرامكة .
٧ ـ مستنقع .
٨ ـ الكربون .
٩ ـ الإدريسى .
١٠ ـ بروتوبلازم .
١١ ـ بلزاك .
١٢ ـ البعوضة .
١٣ ـ البحرين .
١٤ ـ الشطرنج .
١٥ ـ الأكزيما .
١٦ ـ البرونز .
١٧ ـ أوغندا .
١٨ ـ بلوتو .
١٩ ـ اختزال .
٢٠ ـ البرسيم

* * *

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

٦٨٥٩

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

فى هذا الكتاب

صفحة

سبحان الله .. (قصة قصيرة) ———— ٥

اختبر معلوماتك ———— ١٦

خرزة زرقاء .. (قصة قصيرة) ———— ٢٢

عملية النسر المنفرد .. (الجزء الثانى) ———— ٢٧

المرأة مشكلة صنعها الرجل (دراسة) ———— ١١٣

قصة العدد

الكوكب العاشر ———— ١٣١

عزيزى القارئ ———— ٢٤٦

حلول اختبر معلوماتك ———— ٢٧١

الثمن فى مصر ٢٠٠ ص

ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم